١٠- كتَاب الحَجّ

٢٣٣- باب وجوب الحج وفضله

قَالَ اللّه تَعَالَى: ﴿وَللّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ اللّهَ غَنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ﴾[آل عمران: ٩٧].

الحديث رقم (١٢٧٣)

١٢٧٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((بُنِيَ الإسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ، وَأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللهِ، وَإقَامِ الصَّلاَةِ، وَإيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ البَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ)) متفقٌ عَلَيْهِ[1].

ترجمة الراوي:

عبدالله بن عمر بن الخطاب: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١٢).

الشرح الأدبي

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ رسول الله ﷺ، قَالَ: ((بُنِيَ الإسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللهُ، وَأنَّ مُحَمَّداً رسولُ اللهِ، وَإقَامِ الصَّلاَةِ، وَإيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَحَجِّ البَيْتِ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ)) متفقٌ عَلَيْهِ. سبق شرحه ينظر الحديث (١٢٨٢). أركان الإسلام من صلاة، وزكاة، وصيام، وحج وسائل تربية، وتقويم للمجتمع تمثل جزءاً من المنهج الإيماني من أعمال المجتمع التي يؤديها المسلم في حياته وبها يبدو في ثوبه القشيب يرتبط بهذا الجزء الذي يؤديه في يومه في الصلاة، وفي ماله بالزكاة، وفي عامه بالصوم، وفي عمره بالحج، يرتبط بذلك بالجزء الأكبر بالكون كله، وبالحياة كلها، ويتكامل

---

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦/٢١)، وتقدم برقم (١٠٧٧)، و (١٢٠٨). أورده المنذري في ترغيبه (١٠٩٢).

ديناً، ودنيا علماً، وعملاً، قولاً، وفعلاً، ويتحول بهذا الامتزاج بين الأجزاء في داخل نفسه، وحسه إلى طاقة تغير الحياة، والأحياء، وإلى ينابيع خير، وحب، وعدل، وإخلاص[١]. وقول الرسول ﷺ (بني الإسلام) جملة خبرية قصد بها بيان أسس الدين التي قام عليها، والتعبير بالبناء على سبيل الاستعارة المكنية التي تصور الإسلام كأنه بناء شامخ قام على خمس دعائم مما يشير إلى أنه حصن، وملاذ، وقد رمز إليه بالبناء وهو من خواص المحسوسات، والإسلام معنوى بدا في هذه الصورة المجسَّمة التي تجعل المعنى أكثر وضوحا مع توسيع الدلالة الإيحائية، وذكر العدد خمس إجمال تلاه تفصيل، وهو ما حقق التوكيد، والتشويق للخبر، وأولها: (شَهَادَةِ أنْ لاَ إلهَ إلاَّ اللّهُ، وَأنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللّهِ،) لأنها بوابة الدخول ولا تقبل فريضة تتجرد عنها في قلب صاحبها، وثانيها: (وَإقَامِ الصَّلاَةِ) والتعبير بالإقامة عن الأداء يتضمن إتقان كل ما يتعلق بها من أعمال، لأن اللفظ يدل على تعديل المعوج، والإصلاح، والحفظ، وغيرها من معان، والثالث (وَإيتَاءِ الزَّكَاةِ) والتعبير بالإيتاء يشير إلى مشقة في الفعل تأتي من طبيعة شح النفوس، وحبها للمال مع تحري المساكين والفقراء والمستحقين لها والرابع: (وَحَجِّ البَيْتِ) و(ال) في البيت للعهد أي البيت الحرام، والخامس (وَصَوْمِ رَمَضَانَ) أي شهر رمضان، وهذه الأركان كيان متكامل يكمل بعضه بعضا في إعداد النفس لإعمار الدنيا والآخرة.

المضامين الدعوية[٢]

---

(١) منهج القرآن في تربية المجتمع د. عبد الفتاح عاشور، ص ١٩٠.

(٢) تقدم ذكرها في شرح الحديث ١٠٧٧، ١٢٠٨.

الحديث رقم (١٢٧٤)

١٢٧٤- وعن أَبي هريرة رضي الله عنه ، قَالَ: خَطَبَنَا رسولُ اللهِ ﷺ ، فَقَالَ: ((**أيُّهَا النَّاسُ، قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُم الحَجَّ فَحُجُّوا**)) فَقَالَ رَجُلٌ: أكُلَّ عَامٍ يَا رَسولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ، حَتَّى قَالَهَا ثَلاثاً. فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: ((**لَوْ قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ**)) ثُمَّ قَالَ: ((**ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ؛ فَإنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ، وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا أمَرْتُكُمْ بِشَيءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَن شَيْءٍ فَدَعُوهُ**)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

واختلافهم على أنبيائهم: فيتقولون عليهم ما لم يقولوه ويحرفون ما قالوا[٢].

الشرح الأدبي

بني الحديث علي الأسلوب الإنشائي، حيث بدأه الرسول بنداء الناس، وبيان أمور الشرع لهم، فقال: " يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا " وفائدة النداء تتمثل في تنبيه الأذهان إلي القضايا التي تأتي بعده، ولذا قال علماء اللغة: إن معظم النداءات يأتي بعدها أمر أو نهي كقوله تعالي: " يا أيها الذين امنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا " وقوله تعالي: " يا أيها الذين امنوا لا يسخر قوم من قوم عسي أن يكونوا خيرا منهم ". وقول الرسول: " قد فرض الله عليكم. " يقرر أن الله تعالي هو الذي أنزل الأوامر، والنواهي، وأن الدين دينه، والرسول ﷺ ما هو إلا مبلغ عن الله تعالي. وقول الرجل: " أكل عام يا رسول الله ؟ يدل علي شغفه بالعلم، والتعلم. رددها الرجل

---

(١) برقم (١٣٣٧/٤١٢). وأخرجه البخاري (٧٢٨٨) من قوله: ((ذروني ما تركتكم)) إلى آخره.

(٢) دليل الفالحين ١٣٤٨.

ثلاثا. ثم رد النبي ﷺ بقوله: " لو قلت نعم لو جبت، ولما استطعتم " ثم قال: " ذروني ما تركتكم " وهذا الأمر للإرشاد والتوجيه، وذلك من باب التخفيف علي الأمة، ومن ملامح هذا التخفيف أيضا أن الأشياء المنهي عنها – يجب البعد عنها تماما، والأشياء المأمور بها علي المؤمن أن يفعل منها ما يقدر عليه، وهو ما دل عليه أسلوب الشرط في قوله يقول: " فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه " والطباق بين الفعلين أمرتكم، ونهيتكم يشير إلى أن حركة المؤمن مرتبطة بالأمر، والنهي النبوي.

المضامين الدعوية

أولاً: من وسائل الدعوة: الخطبة.

ثانيًا: من أساليب الدعوة: النداء والأمر والسؤال والجواب.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: فريضة الحج.

رابعًا: من آداب المدعو: عدم الإلحاح في السؤال.

خامسًا: من تاريخ الدعوة: هلاك الأمم السابقة بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم.

سادسًا: من خصائص الدعوة: التيسير على الناس ورفع الحرج.

سابعًا: من آداب المدعو: الالتزام بالأوامر والنواهي.

أولاً – من وسائل الدعوة: الخطبة:

حيث جاء في الحديث: (خطبنا رسول الله ﷺ)، وتعتبر الخطبة من وسائل الدعوة الهامة، "إذ أن الخطبة وسيلة جيدة للتبليغ وتكون عادة لجمع من الناس قد لا يعرفهم الداعي، أو يعرف بعضهم فقط، ويشترط للخطبة الناجحة أن يكون لدى الداعي معنى أو معان معينة يريد بيانها، ولفت الأنظار إليها، ومن المستحسن أن يكون موضوع الخطبة مما له علاقة في أحوال الناس مع ربط ذلك بمعاني العقيدة الإسلامية"[1]، ومما لا شك فيه أن الخطبة هي وسيلة البيان التي بها يبلغ الداعي دعوته، "إن الخطابة في

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٧٤.

الدعوة إلى الله واجبة لأنها لازمة لتبليغ الدعوة، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فالدعوة يلزمها صوت قوي وفكر ذكي وبيان ناصع وصوت داوٍ، والخطابة رسول ذلك وبلاغه وحامل هذا وسلطانه، والخطابة بالنسبة إلى الداعية سلاح يدافع به عن دعوته، فهي وسيلة لصياغة المبادئ وإظهار جلالها ورفعة شأنها"[1].

ثانيًا - من أساليب الدعوة: النداء والأمر و السؤال والجواب:

١ - **النداء:** حيث جاء في الحديث: (يا أيها الناس)، وأسلوب النداء من أساليب الدعوة التي تلفت انتباه المدعو وتجذبه وتشعره بالقرب من الداعية، ومن صور استعمال القرآن لهذا الأسلوب قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[3].

٢ - **الأمر:** حيث جاء في الحديث: (فحجوا)، وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة التي تشعر المدعو بأهمية المأمور به وضرورة تنفيذه؛ ذلك لأن الأمر يقتضي وجوب التنفيذ، جاء في البلاغة الواضحة: "الأمر طلب الفعل على وجه الاستعلاء، وقد تخرج صيغ الأمر عن معناها الأصلي إلى معانٍ أخرى تستفاد من سياق الكلام كالإرشاد والدعاء والالتماس والتمني والتخيير والتسوية والتعجيز والتهديد والإباحة"[4]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[5].

٣ - **السؤال والجواب:** وذلك حيث جاء في الحديث: (فقال رجل: أكل عام يا رسول الله؟)، وأسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة الهامة حيث يفتح حوارًا بين الداعية والمدعو ويزيل الشبهات واللبس لدى المدعو، قال د. عبدالكريم البكار: "إن تشجيع الناس على طرح الأسئلة، وإبداء الرأي حول مختلف القضايا أمر في غاية

---

(١) الخطابة وإعداد الخطيب، د. توفيق الواعي ص ٣٠ - ٣١.

(٢) سورة الانفطار، آية: ٦.

(٣) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

(٤) البلاغة الواضحة، أ. علي الجارم، مصطفى أمين ص ٢١٤.

(٥) سورة البقرة، آية: ٤٣.

الأهمية، لأن ذلك يبنى نفسية المشاركة، وتحمل المسؤولية، وهو من الطرق الفعالة في إحداث القناعة بالرسالة الدعوية، بل القناعة بأية فكرة مطروحة مهما كان نوعها، فإن الناس يحتاجون إلى إقناع بضرورة تعلم المراجعة والمشاركة في عملية التعلم والتفهم للموضوعات المطروحة، وهم بحاجة إلى تدريب على ذلك، والترحيب باستجابتهم لهذه الدعوة بدل ما يحصل الآن من الحرص على صمتهم، واستماعهم لما يلقى عليهم"(١)، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب السؤال والجواب قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾(٢).

ثالثًا - من موضوعات الدعوة: فريضة الحج:

يتضح هذا من الحديث: (قد فرض الله عليكم الحج فحجوا)، فدلّ هذا على فريضة الحج وقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣)، وقال الله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾(٤)، والحج من أفضل الأعمال فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئِلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟ قال: ((إيمانٌ باللّهِ ورسولِهِ. قيل: ثمَّ ماذا؟ قال: جهادٌ في سبيلِ اللّهِ. ثم ماذا؟ قال: حجٌّ مَبْرُورٌ))(٥)، والحج يمحق الذنوب فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من حجَّ للّهِ فلمَ يَرفُثْ ولم يَفْسُقْ رَجَعَ كيومِ ولدَتْهُ أمُّه))(٦).

وفريضة الحج لها مقاصد ومصالح "لقد شاء الله تعالى أن يتخذ لنفسه بيتًا يزار

---

(١) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي ص ١٥٥.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٣) سورة آل عمران، آية: ٩٧.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

(٥) أخرجه البخاري ٢٦، ومسلم ٨٣.

(٦) أخرجه البخاري ١٥٢١، ومسلم ١٣٥٠.

فيه، فإذا صورة مادية ترمز إلى أسمى الغايات الروحية، وإذا العين ترى الأعمال الإنسانية وهي تطوف حول معبود واحد، وفي الحج تختمر معاني الأخوة في نفوس المسلمين، وتتاح لهم الفرصة ليدرسوا قضاياهم، ويحددوا وسائلهم وأهدافهم، وبهذا ينفض الموسم عن قلوب بعدالة الله مطمئنة، وأرواح بأنوار اليقين مشرقة، وآمال بعلو كلمة الله متفتحة، وعزائم على الجهاد في سبيله متجددة، وأواصر حول لوائه معقودة، وفي الحج تبرز المساواة بين المسلمين"[١].

قال الشيخ: عفيف طبارة: "إن الإسلام يعتبر الحج وسيلة لتحقيق الفوائد الروحية والأدبية والاجتماعية والاقتصادية، والحج مؤتمر عام لتوحيد غايات المسلمين وتوجيههم إلى مصادر الحياة الصحيحة بما يقتبسه بعض شعوبهم من ثقافات البعض الآخر[٢].

إن الحج رحلة إلى الله، وتعويد للنفوس لتحمل المشاق والاغتراب وفراق الأهل والوطن مرضاة لله تعالى، وهو إلزام للنفس بالاستسلام للفرائض التي فرضها الله، ولو لم تظهر أسرارها للعقل، كعدد مرات الطواف، وكتكرار رمي الجمار... إلخ. وحسب العقل أنه يمارس العبودية استسلامًا لأمر الله، بالإضافة إلى الجوانب الأخرى التي يتشابه فيها الحج مع الصوم في بناء الصبر وضبط الأعصاب والتحرر من السلبيات، قال تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّ﴾[٣]، والجوانب التي يشبه فيها الحج الزكاة، فالحج نفقات وتطهير من الشح. ولذلك كانت أركان الإسلام مدرسة ملازمة للمسلم تبني في نفسه فيما تبني مكارم الأخلاق، وتتعاهدها باستمرار".

رابعًا – من آداب المدعو: عدم الإلحاح في السؤال:

حيث جاء في الحديث: (ذروني ما تركتكم)، وهذا يعلم المدعو أدب السؤال وأن لا

---

(١) العبادات في الإسلام، د. محمد عبده ص ٢٩٣ – ٢٩٤.

(٢) روح الدين الإسلامي ٢٦٠.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٩٦.

يلح فيه على الداعية، قال ابن علان: "وسكوته ﷺ عنه لينزجر عن سؤاله الواقع في غير محله، وإذا تم ملاحظة أن مدلول الأمر مرة، وما زاد عليها لا بد له من دليل خارجي فلا وجه لسؤاله فكان فيه نوع تعنت وسؤال عما لا يحتاج إليه، وأيضًا فإنه ﷺ أرسل لتبليغ الأحكام بغاية الإيضاح والبيان فلو وجب التكرار لأفاده صريحًا، وإن لم يسأل عنه فالسؤال حينئذ ضائع"[1]، وهذا يعلم المدعو أن لا يسأل عما يسوؤه لو أُبدي، قال تعالى: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[2]، وفي النهي عن كثرة السؤال جاء في الحديث عن عامر بن سعد عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ أَعْظَمَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْمُسْلِمِينَ جُرْمًا، مَنْ سَأَلَ عَنْ شَيْءٍ لَمْ يُحَرَّمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَحُرِّمَ عَلَيْهِمْ، مِنْ أَجْلِ مَسْأَلَتِهِ))[3].

ويستفاد من الحديث أن الحج لا يجب على المكلفين إلا مرة واحدة بأصل الشرع، وذكر النووي في الموضع المذكور أن الأمة أجمعت على ذلك، إلا ما قد يجب بسبب آخر كالنذر.

ويستفاد من الحديث عدم التعمق والتنقيب في الأسئلة لأنه يفضي إلى التعقيد وكثرة التكاليف، قال ابن حجر في الفتح وقد أشار إلى الآية: ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[4]: ولا تكثروا التنقيب عن ذلك، لأنه قد يفضي إلى مثل ما وقع لبني إسرائيل، إذا أمروا أن يذبحوا بقرة فلو ذبحوا أي بقرة كانت لامتثلوا، ولكنهم شددوا فشُدِّد عليهم، وبهذا تظهر مناسبة قوله: (فإنما هلك من كان قبلكم... إلخ) بقوله: (ذروني ما تركتكم)"[5].

وهذا الجزء من الحديث: (ذروني ما تركتكم.. إلخ) موجود لدى البخاري فهو مما

---

(١) دليل الفالحين ١٣٨٣ – ١٣٨٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ١٠١.

(٣) أخرجه البخاري ٧٢٨٩، ومسلم ٢٣٥٨.

(٤) سورة المائدة، آية: ١٠١.

(٥) فتح الباري ١٣/ ٢٦٠.

اتفق عليه الشيخان(١).

والحديث يحث على البساطة وعدم التكلف، والحرص على أداء المعلوم من التكاليف دون البحث عن إضافات، فإن الإنسان ضعيف عمومًا وما يعتريه من نشوة في حال النشاط فإنها لا تستمر، ولذلك كان من حسن خلق الإنسان مع نفسه ومع الآخرين ألا يكون سببًا في الإيقاع في المشقة.

ومن الأخلاق التي يفيدها الحديث الأناة وعدم التسرع، ومن ذلك ألا يتكلم الشخص إلا عند وجود حجة محققة، لأن الكلام أو الفعل تصرف محسوب للإنسان أو عليه، وقد يُلحق أيضًا ضررًا بالآخرين، ووجود احتمال للضرر يرجح إلى جانب الصمت حتى تكون المصلحة ظاهرة من غير شك، فعند ذلك لا بأس بالتصرف بالكلام ونحوه، والسلامة لا يعدلها شيء، وكم من كلمة جرت وبالاً. قال الشاعر:

فإن النار بالعودين تُذْكى وإن الحرب أولها الكلام(٢)

ولذلك جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخرِ فلْيَقُلْ خيرًا أو ليَصمُت))(٣).

وقال سبحانه: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾(٤).

ومن الأخلاق التي يغرسها الحديث في النفوس الاقتداء بسيد البشرية في حسن رده على الرجل، وحكمته في التعامل معه بالسكوت أولاً، ثم بالبيان الهادئ عندما ألح مع التعليل، مع اجتناب الشدة والغلظة، والحرص على الرحمة به وبالأمة في تقليل التكاليف، قال الله تعالى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾(٥)، وقال سبحانه:

(١) ذكره الألباني في الإرواء ١/١٨٣.

(٢) المنتظم، قافية الميم ٧/٢٧٢، والعقد الفريد ١/٩٢، وديوان الحماسة ١/١٠٨.

(٣) أخرجه البخاري ٦١٠٨، ومسلم ٤٧.

(٤) سورة ق، آية: ١٨.

(٥) سورة الأحزاب، آية: ٦.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾[١]، وما أحوج أفراد الأمة والزعماء بالذات إلى مثل هذه الأخلاق.

ومن الأخلاق المستفادة من الحديث الحرص على الابتعاد عن أخلاق الأمم الأخرى وأخذ العبرة من انحرافاتها؛ وقد يميل الإنسان إلى التقليد، وقد يكون فيه حتفه والسعيد من وعظ بغيره. وإذا جاز أن نستورد من الغرب في الماديات فلا يجوز ذلك في المبادئ والتشريعات، بل المفروض علينا أن نصدر إليهم ما عندنا من الهدى فهم في أمس الحاجة إليه، وأما الإصرار على الاستيراد فمعناه الإصرار على الهلاك.

خامسًا - من تاريخ الدعوة: هلاك الأمم السابقة بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم:

حيث جاء في الحديث: "فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم"، وهذا من تاريخ الدعوة الذي يجب أن يعرفه المدعو حتى يعتبر ويتعظ ويزدجر عما يكون سببًا في هلاكه.

قال ابن علان: (إنما كانوا يسألون من غير حاجة بل لقصد التعنت المؤدي للإيذاء أو التكذيب، وكانوا يختلفون على أنبيائهم فيتقولون عليهم ما لم يقولوه، ويحرفون ما قالوه إيثارًا لما ينالهم من ضعفائهم وأتباعهم على رضا الله تعالى واتباع أنبيائه ورسله)[٢].

وقال ابن عثيمين: (انظر إلى أصحاب البقرة حين قال لهم موسى اذبحوا بقرة ليضربوا بجزء منها القتيل، ولو ذبحوا أي بقرة تلك الساعة لحصل لهم المقصود لكن جعلوا يسألون ما هي؟ وما لونها؟ ما هي - يقصدون ذكر أكبر قدر من العلامات -؟ حتى شددوا فشدد الله عليهم فذبحوها وما كادوا يفعلون، فالحاصل أن كثرة المسائل والاختلاف على الأنبياء من أسباب الهلاك)[٣].

سادسًا - من خصائص الدعوة: التيسير على الناس ورفع الحرج:

حيث جاء في الحديث: "لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ... فإذا أمرتكم بشيء

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٥٩.

(٢) دليل الفالحين ص ١٣٨٤.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢/١٢٤٠.

فأتوا منه ما استطعتم"، وهذا من مظاهر التيسير ورفع الحرج.

قال النووي: (وهذا الحديث موافق لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[١]، وهي مفسرة ومبينة لقوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[٢]، قالوا: وحق تقاته هو امتثال أمره واجتناب نهيه، ولم يأمر سبحانه إلا بالمستطاع، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٍ﴾[٤]، هذا وقد أجمعت الأمة على أن الحج لا يجب في العمر إلا مرة واحدة بأصل الشرع وقد تجب زيادة بالنذر)[٥].

وكل ذلك يدل على يسر الشريعة الإسلامية، قال د. القرضاوي: "إن الإسلام وسط في عباداته وشعائره بين الأديان والنحل، فالإسلام يكلف المسلم أداء شعائر محدودة في اليوم كالصلاة، أو في السنة كالصوم، أو في العمر مرة كالحج ليظل دائمًا موصولاً بالله، غير مقطوع عن رضاه، ثم يطلقه بعد ذلك ساعيًا منتجًا، يمشي في مناكب الأرض، ويأكل من رزق الله فهذا هو شأن المسلم مع الدين والحياة"[٦].

إن الإسلام يربي أتباعه على الدعوة إلى الله بالحسنى وطرح التكاليف على الناس بالأسلوب الميسر غير المنفر، وعندما بعث الرسول ﷺ معاذًا وأبا موسى رضي الله عنهما إلى اليمن كما في الحديث المتفق عليه قال لهما: ((يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنفِّرا))[٧].

والرسول ﷺ في الحديث الذي نحن بصدده يمارس التيسير ليقتدي به الآخرون حين يصرف عن التعمق والتكلف، وحين يبين بساطة فريضة عظيمة من فرائض

(١) سور التغابن، آية: ١٦.
(٢) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.
(٣) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.
(٤) سورة الحج، آية: ٧٨.
(٥) شرح صحيح مسلم ص ٨٣٧ – ٨٣٨.
(٦) الخصائص العامة للإسلام ص ١٣٧ – ١٣٨.
(٧) أخرجه البخاري ٣٠٣٨، ومسلم ١٧٣٢.

الإسلام، وركن كبير من أركانه وهو الحج، وأنه لا يجب إلا مرة واحدة في العمر، وهو بذلك يربي النفوس على التبسط، ويعمق فيها أن حقيقة الإسلام هي اليسر، وأن منهجيته دون سائر المنهجيات هي اليسرى، قال تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾[١].

كما أن الإسلام يربي الفرد على جلب المنافع لنفسه ولمجتمعه، وأنه إذا لم ينفع فلا يجوز له أن يضر، ومعنى ذلك أنه يبث الأمان الاجتماعي، فيطمئن المسلمون إلى بعضهم بعضًا، ويتعاملون بصدور تحمل معاني الإخاء والمحبة والصفاء، يحرص كل أحد منهم على أن يكون باب خير، ويتجنب أن ينفتح على المسلمين باب شر من جهته كما في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((فَطُوبى لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الْخَيْرِ عَلَى يَدَيْهِ. وَوَيْلٌ لِمَنْ جَعَلَ اللَّهُ مَفَاتِيحَ الشَّرِّ عَلَى يَدَيْهِ))[٢].

وإذا كان الإسلام يربي المسلمين على التماسك ونفع بعضهم بعضًا فإنه بذلك يجعل منهم معسكرًا وكيانًا واحدًا كما في ذات الوقت يجعلهم يتعاملون مع الكيانات الأخرى، بحذر ويقظة فتتحقق بذلك العافية الدينية والدنيوية، وينمي الإسلام في المسلمين روح الأستاذية التي تجعلهم يؤثرون في الآخرين دون أن يتأثروا، فينفعون أنفسهم وينفعون الآخرين دون ضرر على أحد.

ومن التربية في هذا الحديث أنه يوجه إلى صرف الطاقة في العمل المتيقن لزومه وادخارها لذلك، وعدم إهدارها في الكلمات والنظريات التي لا تعود بطائل، وإذا اتجهت الهمم إلى العمل فإن الحديث يربي على عدم الغلو فيه إلى حد يتجاوز الاستطاعة، حفاظًا على النفوس من الملل والكلل والإحباط، وإيثارًا للاستمرار والدوام، وما كان من الأضرار والمنهيات فإن النفوس لا تتكلف طاقة في تركه، فأمر الحديث بالحزم في تركه، لأن صيانة الأمة لا تقبل التردد.

---

(١) سورة الليل، آية: ٧.

(٢) أخرجه ابن ماجه ٢٣٧، وحسنه الألباني، (صحيح سنن ابن ماجه ١٩٤).

سابعًا - من آداب المدعو: الالتزام بالأوامر والنواهي:

حيث جاء في الحديث: (فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)، إن من أهم آداب المدعو الاستجابة للأوامر بتنفيذها والنواهي باجتنابها، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(١)، وجعل الله سبحانه في الاستجابة للرسول ﷺ الحياة الحقيقية، قال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٢)، وجعل الله سبحانه طاعة الرسول ﷺ من طاعة الله فقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾(٣)، وجعل اتباعه في الأمر والنهي سبيل محبة الله، قال سبحانه: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾(٤).

وفي الحديث: بيان أن التشريع ومنه الإيجاب والفرض على المكلفين إنما هو لله جل وعلا وأن الالتزام بذلك ضرورة عقدية، وذلك ظاهر من قوله - عليه الصلاة والسلام - في الحديث: "إن الله فرض عليكم". وأن الرسول ﷺ له أيضًا حق التشريع؛ لأنه مأذون له من الله سبحانه، وذلك ظاهر من قوله - عليه الصلاة والسلام - في الحديث: (لو قلت نعم لوجبت)، وقوله في الحديث: (فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)، والآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾(٥)، مبينة كذلك أن التشريع لله ولمن أذن له، ومعلوم أن الله أذن لأنبيائه عليهم السلام، وواضح أن

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

(٢) سورة الأنفال، آية: ٢٤.

(٣) سورة النساء، آية: ٨٠.

(٤) سورة آل عمران، آية: ٣١.

(٥) سورة الشورى، آية: ٢١.

التشريع من قضايا العقيدة، ولذلك سمَّت الآية الذين يشرعون ما لم يأذن به الله شركاء، وتوعدتهم بالعقاب، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (وقوله جل وعلا: "أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله"، أي: هم لا يتبعون ما شرع الله لك من الدين القويم، بل يتبعون ما شرع لهم شياطينهم من الجن والإنس، من تحريم ما حرموا عليهم من البحيرة والسائبة والوصيلة والحام وتحليل أكل الميتة والدم، والقمار، إلى نحو ذلك من الضلالات والجهالة الباطلة التي قد اخترعوها في جاهليتهم من التحليل والتحريم والعبادات الباطلة والأقوال الفاسدة، وقد ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ قال: (رأيت عمرو بن لحي بن قمعة يجر قصبه في النار لأنه أول من سيب السوائب)، وكان هذا الرجل أحد ملوك خزاعة، وهو أول من فعل هذه الأشياء، وهو الذي حمل قريشًا على عبادة الأصنام لعنه الله وقبحه، ولهذا قال تعالى: "ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم"، أي لعوجلوا بالعقوبة لولا ما تقدم من الإنظار إلى يوم المعاد "وإن الظالمين لهم عذاب أليم" أي شديد موجع في جهنم وبئس المصير)[1].

وقال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾[2]: "عند كلامه على الياسق الذي وضعه جنكيز خان: ... وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه فصارت في بنيه شرعًا متبعًا يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فمن فعل ذلك منهم فهو كافر"[3]. وكلامه هذا ينطبق اليوم على من يخلط أحكام الإسلام بأحكام مستوردة ويضعها في صورة دساتير أو قوانين أو برامج أو أنظمة لدول أو أحزاب أو جماعات لا تتفق مع دين الله بحجة التقدم ومسايرة الاشتراكية أو الديمقراطية أو حق الإنسان أو حقوق المرأة... إلخ، وكل دستور أو قانون أو برنامج أو نظام من هذا القبيل فإنما هو ياسق معاصر،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٤١/٤.

(٢) سورة المائدة، آية: ٥٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ١٣١/٣.

والحكم في الإسلام إنما هو لله قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[1].

ويستفاد من الحديث عدد من الأحكام الأصولية والفقهية من ذلك أن الراجح أن الأصل في الأمر الشرعي أنه لا يقتضي التكرار ولا عدمه، فقوله (فحجوا) لا تقتضي التكرار ولا عدمه، قال النووي في شرح مسلم: "واختلف الأصوليون في أن الأمر هل يقتضي التكرار، والصحيح عند أصحابنا لا يقتضيه، والثاني يقتضيه والثالث يتوقف فيما زاد على مرة على البيان فلا يحكم باقتضائه ولا بمنعه، وهذا الحديث قد يستدل به من يقول بالتوقف لأنه سأل فقال: أكل عام؟ ولو كان مطلقه يقتضي التكرار أو عدمه لم يسأل"[2].

ويستفاد من الحديث أن الشرع لا يلزم المكلفين في الأوامر إلا بالمستطاع، قال النووي في شرح مسلم: "(فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم) هذا من قواعد الإسلام المهمة ومن جوامع الكلم التي أعطيها ﷺ، ويدخل فيه ما لا يحصى من الأحكام كالصلاة بأنواعها، فإذا عجز عن بعض أركانها أو بعض شروطها أتى بالباقي، وإذا عجز عن بعض أعضاء الوضوء أو الغسل غسل الممكن، وإذا وجد بعض ما يكفيه من الماء لطهارته أو لغسل النجاسة فعل الممكن، وإذا وجبت إزالة منكرات أو فطرةُ جماعةٍ تلزمه نفقتهم أو نحو ذلك وأمكنه البعض فعل الممكن، وإذا وجد ما يستر بعض عورته أو حفظ بعض الفاتحة أتى بالممكن، وأشباه هذا غير منحصرة ...، وهذا الحديث موافق لقول الله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾[3] وأما قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[4] ففيها مذهبان: أحدهما أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ والثاني وهو الصحيح أو الصواب وبه جزم المحققون أنها ليست منسوخة

---

(١) سورة يوسف، آية: ٤٠.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٠١/٩.

(٣) سورة التغابن، آية: ١٦.

(٤) سورة آل عمران، آية: ١٠٢.

بل قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ مفسرة لها، ومبينة للمراد بها، قالوا: وحق تقاته هو امتثال أمره واجتناب نهيه، ولم يأمر سبحانه وتعالى إلا بالمستطاع، قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾[١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٢] والله أعلم"[٣].

كما يستفاد من الحديث أن المكلفين ملزمون باجتناب المنهيات بتاتًا في غير أحوال الضرورة، ولم يقيد ذلك بالاستطاعة لأن اجتناب المنهيات ترك وهو مقدور لكل أحد. قال النووي في الموضع السابق: "(وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه) فهو على إطلاقه فإن وجد عذر يبيحه كأكل الميتة عند الضرورة أو شرب الخمر عند الإكراه أو التلفظ بكلمة الكفر إذا أكره ونحو ذلك فهذا ليس منهيًا عنه. والله أعلم"[٤].

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨٦.

(٢) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٠٢/٩.

(٤) المرجع السابق نفسه والجزء والصفحة نفسها.

الحديث رقم (١٢٧٥)

١٢٧٥- وعنه، قَالَ: سُئِلَ النَّبيُّ ﷺ أيُّ العَمَلِ أفْضَلُ؟ قَالَ: ((إيمَانٌ بِاللهِ وَرَسولِهِ)) قيل: ثُمَّ ماذا؟ قَالَ: ((الجِهَادُ فِي سَبيلِ اللهِ)) قِيلَ: ثُمَّ مَاذا؟ قَالَ: ((حَجٌّ مَبرُورٌ)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

حج مبرور: لا يرتكب صاحبه فيه معصية[٢]، وقيل: هو المقبول[٣].

الشرح الأدبي

الاستفهام في قوله: " أي العمل أفضل؟ " للاسترشاد، والتعلم، لبيان أفضلية الأعمال التي يقوم بها المؤمن فيقدم الأفضل علي الفاضل. ويدل على ذكاء وقّاد، ونفس طموحة تسعى وراء معالي الأمور، وهو ما توفّرت عليه نفوس الصحابة وقوله: " إيمان بالله ورسوله " يشير إلى حسن ترتيب النبي لكلماته، وعباراته حسب أهمية العمل، ومنزلته، ومن هنا بدأ بالإيمان بالله، ورسوله، لأن كل ما يأتي بعد ذلك في الحديث قائم علي ذلك الإيمان. .. ولفظ " إيمان " يوحي بخصوصية في حركة القلب باستقرار الإيمان، وتغلغله فيه، فظهر أثره علي الجوارح، فطوعت تلك الأعضاء للجهاد في سبيل الله، والقيام بأداء فريضة الحج. ولفظ: " مبرور " جاء من البر، وهو ضد " الإثم " والبر يدل علي أن المؤمن القائم بالحج يفعل أفعال البررة، ويحافظ علي حجه، وتصرفاته، وأقواله، وأعماله، حسبة لله تعالي، لأنه يراقبه، ويتقيه، ويعلم أنه خبير وبصير. والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦)، ومسلم (٨٣/١٣٥) ولفظهما سواء. أورده المنذري في ترغيبه (١٦٣٩). وسيكرره المؤلف برقم (١٢٨٩).

(٢) رياض الصالحين ٤٥٣.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ر ر).

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: بيان أفضل الأعمال عند الله تعالى.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعًا: من فقه الداعية: مراعاة أحوال المدعوين.

خامسًا: من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عما ينفعهم.

أولاً - من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: (أي العمل أفضل؟)، إن أسلوب السؤال والجواب من الأساليب الدعوية المهمة حيث يفتح حوارًا بين الداعية والمدعو، ويشجع المدعو على السؤال عما لا يعرف، ويتطلع المدعو إلى معرفة ما يجهل هذا، وقد أمر الله بالسؤال فقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، والداعية الناجح هو الذي يستطيع بما معه من ثقافة عالية أن يجيب على تساؤلات المدعوين، ويحفزهم لذلك، ويكون لديه من القدرة على الاستطراد مع أي سؤال يطرحه المدعو، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب السؤال والجواب قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾[2].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: بيان أفضل الأعمال عند الله تعالى:

حيث جاء في الحديث: "إيمان بالله ورسوله"، "جهاد في سبيله"، "حج مبرور"، ومما لا شك فيه أهمية هذه الأمور: فالإيمان بالله ورسوله يقف على رأس المطلوبات من كل إنسان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ

(١) سورة النحل، آية: ٤٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٥.

وَنُورُهُمْ﴾[١]، وقال سبحانه: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾[٢].

وأما الجهاد فقد مدحه الله في مواضع كثيرة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[٤]، أما الحج المبرور فقد جاء في الحديث ما يدل على فضله، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ حَجَّ، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ رَجَعَ مِنْ ذُنُوبِهِ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ))[٥].

إن هذا الحديث الذي معنا فيه ترتيب الأفضلية في الأعمال، وأن الإيمان يطلق عليه عمل، وقد بدأ به، وهو أساس كل عمل في القلب أو في الجارحة، لأن الله سبحانه لا يقبل أي عمل بدونه، قال تعالى في عمل الكافرين: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾[٦]، وقال الشوكاني عند تفسير هذه الآية: "وذلك أنهم كانوا يعملون أعمالاً لها صورة الخير: من صلة الرحم، وإغاثة الملهوف، وإطعام الطعام،

---

(١) سورة الحديد، آية: ١٩.
(٢) سورة البقرة، آية: ٢٨٥.
(٣) سورة الصف، الآيتان: ١٠ - ١١.
(٤) سورة التوبة، الآيتان: ٢٠ - ٢١.
(٥) أخرجه البخاري ١٥٢١، ومسلم ١٣٥٠.
(٦) سورة الفرقان، آية: ٢٣.

وأمثالها، ولم يمنع من الإثابة عليها إلاّ الكفر الذي هم عليه"(١).

وقال النووي: "والمراد به والله أعلم الإيمان الذي يدخل به في ملة الإسلام وهو التصديق بقلبه والنطق بالشهادتين، فالتصديق عمل القلب والنطق عمل اللسان"(٢).

وقد ورد ذكر الجهاد في الترتيب بعد الإيمان، لأنه أشق الأعمال التي يقوم بها المؤمن، وهو ذروة سنام الإسلام، ولا يقدم عليه مؤمن صادق الإيمان في الغالب، ولذلك قال الله تعالى في المنافقين: ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾(٣)، وسورة التوبة مليئة بمعاذيرهم وتهرباتهم. وأهل الإيمان الصادق لا يتهربون، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾(٤).

وذكر سبحانه بصيغة الحصر والقصر أن الصادقين هم المؤمنون دون ارتياب، المجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾(٥)، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: (إنما المؤمنون الكمل الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا، أي لم يشكوا ولا تزلزلوا بل ثبتوا على حال واحدة هي التصديق المحض، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، أي وبذلوا مهجهم ونفائس أموالهم في طاعة الله ورضوانه، أولئك هم الصادقون، أي في قولهم إذا قالوا

---

(١) فتح القدير ١٠١/٤.

(٢) شرح صحيح مسلم ٧٨/٢.

(٣) سورة محمد، آية: ٢٠.

(٤) سورة التوبة، الآيتان: ٤٤ - ٤٥.

(٥) سورة الحجرات، آية: ١٥.

إنهم مؤمنون)[١].

ثم ذكر الحج المبرور في الرتبة الثالثة؛ لأن المشقة فيه كبيرة شبيهة بمشقة الجهاد، وإن كانت دونها، فإن فيه تعريض النفس للجهد والمخاطرة، وفيه إنفاق المال والاغتراب، بل قد سمي الحج جهادًا في حق النساء، بل أفضل الجهاد في حقهن كما عند البخاري: ((لكُن أفضل الجهاد حجٌ مبرور))[٢].

هذا الحديث فيه ترتيب معين لأعمال معينة، وهناك ترتيبات أخرى في أحاديث أخرى صحيحة، فكيف يتم الجمع بين ذلك في ضوء النصوص الشرعية، قال النووي: "أما معاني الأحاديث وفقهها فقد يستشكل الجمع بينها مع ما جاء في معناها من حيث إنه جعل في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن أفضل الأعمال الإيمان بالله ثم الجهاد ثم الحج. وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه: الإيمان والجهاد. وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: الصلاة ثم بر الوالدين ثم الجهاد. وتقدم في حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: «أي الإسلام خير؟ قال تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

وفي حديث أبي موسى وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «أي المسلمين خير؟ قال: من سلم المسلمون من لسان ويده»، وأمثال هذا في الصحيح كثيرة. واختلف العلماء في الجمع بينها، فذكر الإمام الجليل أبو عبد الله الحليمي الشافعي عن شيخه الإمام العلامة المتقن أبي بكر القفال الشاشي الكبير .... أنه جمع بينها بوجهين، أحدهما: أن ذلك اختلاف جواب جرى على حسب اختلاف الأحوال والأشخاص؛ فإنه قد يقال: خير الأشياء كذا، ولا يراد به خير جميع الأشياء من جميع الوجوه، وفي جميع الأحوال والأشخاص، بل في حال دون حال أو نحو ذلك، الوجه الثاني: أنه يجوز أن يكون المراد من أفضل الأعمال كذا، أو من خيرها أو من خيركم من فعل كذا، فحذفت (منْ) وهي مرادة كما يقال: فلان أعقل الناس وأفضلهم، ويراد أنه من أعقلهم وأفضلهم، ومن ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خيركم خيركم لأهله» ومعلوم أنه لا يصير بذلك خير

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٢٧٩/٤.

(٢) أخرجه البخاري ٢٧٨٤.

الناس مطلقًا... هذا كلام القفال، وعلى هذا الوجه الثاني يكون الإيمان أفضلها مطلقًا، والباقيات متساوية في كونها من أفضل الأعمال والأحوال، ثم يعرف فضل بعضها على بعض بدلائل تدل عليها وتختلف باختلاف الأحوال والأشخاص، فإن قيل: فقد جاء في بعض هذه الروايات أفضلها كذا، ثم كذا، بحرف ثم، وهي موضوعة للترتيب، فالجواب: أن ثم هنا للترتيب في الذكر كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ... ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[1]، ومعلوم أنه ليس المراد هنا الترتيب في الفعل؛ لأن الإيمان مقدم على هذه الأفعال. وكما قال تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾[2]، ومعلوم أن إيتاء موسى عليه السلام الكتاب مقدم على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم"[3].

وأما تقديم الجهاد على الحج مع أن الحج ركن من أركان الإسلام فقد قال ابن حجر: " إن نفع الحج قاصر غالبا، ونفع الجهاد متعد غالبا، هذا بالإضافة إلى ما سبق ذكره من أن مشقة الجهاد أعظم من مشقة الحج "[4].

وأما الحج المبرور فقد قال المصنف: "هو الذي لا يرتكب صاحبه فيه معصية، وذكر مثل ذلك، أو أنه المأجور، أو الخالص لله، أو المتقبل، وأن من علامات القبول أن يزداد صاحبه بعده خيرًا، والأقوال في تعريف الحج المبرور ملتقية"[5].

ثالثًا - من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث جاء في الحديث: (إن هذه الأمور من أفضل الأعمال)، وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة الهامة، حيث يحبب المدعو في فعل الخير ذلك لأن النفس البشرية

---

(١) سورة البلد الآيات: ١٢-١٧.

(٢) سورة الأنعام، الآيات: ١٥١ - ١٥٤.

(٣) شرح صحيح مسلم ٢/٧٧ - ٧٨.

(٤) فتح الباري ١/٧٩.

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ٢/٧٤ - ٧٥.

بطبيعتها تميل إلى الوعد بالثواب والأجر، "والترغيب هو كل ما يشوق المدعو إلى الاستجابة وقبول الحق والثبات عليه"[١]، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الترغيب قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[٢].

رابعًا - من فقه الداعية: مراعاة أحوال المدعوين:

يتضح ذلك من مضمون الحديث، وذكر الإيمان بالله ورسوله ثم الجهاد ثم الحج، قال النووي: "ذكر في هذا الحديث الجهاد بعد الإيمان، وفي حديث آخر لم يذكر الحج، وفي حديث آخر بدأ بالصلاة ثم البر ثم الجهاد، قال العلماء: اختلاف الأجوبة في ذلك باختلاف الأحوال واحتياج المخاطبين، وذكر ما لم يعلمه السائل والسامعون وترك ما علموه، ويمكن أن يقال: إن لفظة (من) مرادة كما يقال: فلان أعقل الناس والمراد من أعقلهم"[٣].

وقال ابن حجر: (اختلف الجواب عن هذا السؤال وأجيب بأن لفظ (من) مراد في كل منهما، وقيل: وقع باختلاف الأحوال والأشخاص فأجيب كل سائل بالحال اللائق به، وهذا اختيار الحليمي ونقله عن القفال)[٤].

ويتضح من هذا أن النبي ﷺ في جوابه راعى أحوال المدعوين وأجاب للسائل بما يناسبه ويناسب حاله وإلى هذا يجب أن يفطن الدعاة بأن تنزل إجابتهم حسب أحوال المدعوين.

قال الشيخ: عبدالله ناصح علوان: "إن الداعية لا ينجح في دعوته، ولا يكون موفقًا في تبليغه حتى يعرف من يدعوهم وكيف يدعوهم؟ وماذا يقدم معهم؟ وماذا يؤخر؟ وما القضايا التي يعطيها أهمية وأولوية قبل غيرها؟ وما الأفكار الضرورية التي يطرحها ويبدأ بها؟ وهذه الطريقة في الدعوة هي طريقة الرسول ﷺ وطريقة الذين اتبعوه

---

(١) أصول الدعوة، د. عبدالكريم زيدان ص ٤٣٧.

(٢) سورة القمر، الآيتان: ٥٤ - ٥٥.

(٣) شرح صحيح مسلم ص ١٤٥.

(٤) فتح الباري ٩٨/١.

بإحسان فيجب على الداعية أن يبدأ بالأهم ثم المهم أن يبدأ في الدعوة بالعقيدة قبل العبادة، وبالعبادة قبل مناهج الحياة، وبالكليات قبل الجزئيات، وبالتكوين الفردي قبل الخوض في الأمور العامة[1].

خامسًا- من موضوعات الدعوة: حرص الصحابة رضي الله عنهم على سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عما ينفعهم:

إن الإسلام يربي المسلمين على البحث والتعرف على الحقيقة، والتفاعل في ذلك مع أرفع المستويات والقيادات إيجابية وجدية وشجاعة، وإذا كان الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يترددون في مساءلة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو إمام الأنبياء وسيد ولد آدم ومناقشته، والتكرار عليه حتى يظفروا بالمراد بآداب وأخلاق عالية من الطرفين، فأولى أن يتربى على ذلك سائر المسلمين في سائر الأزمنة والأمكنة مع قياداتهم وزعاماتهم. وهذه التربية ليست نظرية ترفيهية، وإنما هي عملية تطبيقية، ولذلك يُكتفى فيها بالقليل من الكلام والمناقشة، مع الكثير من العمل... فكلمات الرسول صلى الله عليه وسلم كما في الحديث الذي نحن بصدده معدودة، وقد أوتي جوامع الكلم - عليه الصلاة والسلام - وكذلك كانت أسئلة الصحابة رضي الله عنهم من نفس الجنس، وهذه الروح هي المطلوبة أن تسري في الأمة، في نفوس أبنائها، وفي دعوتهم، وعملهم، وهي التي تشكل حياة اجتماعية فريدة. ولا شك أن واقع المسلمين يتمثل ذلك ولو بصورة متفاوتة، لكنها قابلة للتجديد والتوسع باستمرار ما دام هذا الدين باقيًا ومستمرًا.

وإن الإيمان المذكور في أولى الأولويات في هذا الحديث يوجد التربية المثالية بالرقابة الذاتية، ولا مثيل لذلك عند الآخرين، كما أنه يصنع النفوس المطمئنة الخالية من العقد والأمراض، ويوجد المجتمع المثالي المتآخي بالإيمان قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2]، المجتمع الذي يطبق المحبة والمودة والإيثار. وأما الجهاد وهو حماية

---

(١) كيف يدعو الداعية ص ٤٧ - ٤٨.

(٢) سورة الحجرات، آية: ١٠.

للحق، ونشرٌ له وحماية للمستضعفين، فإنه يمثل التضحية في أعلى صورها، إذ إنه تضحية بأغلى ما عند الإنسان: بالنفس والمال، وهذه التضحية يتقاعس عندها الآخرون، وكلّ منهم يريد أن ينوب عنه الآخر في ذلك. أما عند المسلمين فعلى العكس، فهنالك التسابق على هذه التضحية، لا سيما عند من يتشبع بالنصوص الشرعية التي تربط ذلك بأعلى المقامات، وبالإيمان بالذات، ومن ذلك ما في هذا الحديث، فيا لله ما أروع هذه الصفة! وما أعظم أثرها الاجتماعي في المجتمع المسلم! بهذه التضحية نشر الصحابة رضي الله عنهم والأجيال السالفة الإسلام والحق في البلاد التي فتحوها، ومعروف في التاريخ أن الداخلين بالقوة على أي بلد ينظر إليهم أبناء البلد أنهم محتلون مغتصبون مكروهون، بخلاف القادة الفاتحين وجنودهم الذين أدخلوا كثيرًا من البلاد في الإسلام، فإنه ينظر إليهم أبناء تلك البلاد أنهم مجاهدون مباركون قدموا أعظم جميل وخير لأبناء البلد، ويذكرونهم بكل محبة وتقدير، ويدعون لهم في كل حين.

وأما الحج فهو رحلة جماعية سنوية يمارسها المسلم مرة في العمر، ولأجل فضائلها ومنافعها، فإن كل مسلم يتشوّق ويتوق وتهفو نفسه لتكرارها كلما أمكن، لما تفعله في النفوس وفي الواقع الاجتماعي من صلاح وتقوى، وعلاقات وتبادل فوائد، ومنافع دينية ودنيوية، ولما تحدثه من تربية سنوية شاملة، ودعوة متكاملة، وعبادة عميقة، ولما تغرسه من مشاعر نبيلة وذكريات تستعصي على الوصف، ويحرص المسلم في كل مرّة حجٍ على أن يخرج من هذه العبادة وهو أتقى لله وأحظى عند إخوانه، بأن يكون حَجّهُ مبرورًا مقبولاً لا إثم فيه ولا معصية... يبادر في هذه العبادة الجماعية إلى خدمة الآخرين والإحسان إليه بالترويح على أجسامهم وأرواحهم، بتقديم أطايب الطعام لهم ما أمكن، ومعاشرتهم بالسلام وأحلى الكلام، لأن هذا هو برّ الحج... فما أروع هذا الدين!

الحديث رقم (١٢٧٦)

١٢٧٦- وعنه، قَالَ: سَمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ، يقول: ((مَنْ حَجَّ[١]، فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أمُّهُ)) متفقٌ عَلَيْهِ[٢].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

يَرْفُث: من الرَفَث بفتح الراء وضم الفاء: الكلام الفاحش، وهو يطلق على هذا وعلى الجماع، وعلى مقدماته، وعلى ذِكْره مع النساء أو مطلقًا، ويحتمل أن يكون لما هو أعم منها[٣].

لم يفسق: لم يأت بسيئة ولا معصية[٤].

الشرح الأدبي

يتكون الحديث الشريف من جملة شرطية واحدة يوضح النبي ﷺ فيها أمرين أساسيين لقبول حج المؤمن، وهما: عدم الرفث، والفسوق. والرفث كناية عن الجماع، ومقدماته، والفسوق، هو الخروج عن الحد، ويشمل كل المخالفات التي قد يرتكبها الإنسان، فيخرج بسببها من سياج التقوى، كما تخرج التمرة من قشرتها. وجاءت الفاء في قوله: " فلم يرفث. . " لتوضح أن المؤمن يحافظ علي حجه أثناء المناسك، وبعد الانتهاء منها، لأن الفاء للترتيب والتعقيب، حيث يعود الحاج إلي وطنه، وقد تغير إلي الأحسن، والأفضل في تصرفاته، وعبادته لله، ومعاملاته مع الناس، وتكون صفحته خالية من

---

(١) عندهما في هذه الرواية: (من حج لله) وعند مسلم بعده بدون رقم: (من حجَّ فلم يرفث)، تبع المؤلف المنذري وهذا لفظه.

(٢) أخرجه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠/٤٣٨) ولفظهما سواء. اورده المنذري في ترغيبه (١٦٤٠).

(٣) فتح الباري ١٢٥/٤، وانظر: شرح صحيح مسلم ٨٤٥.

(٤) فتح الباري ٤٤٧/٣.

الآثام كالطفل عندما تلده أمه حيث لم يفعل ذنبا قط، وهذا أكبر دليل علي أن التوبة تجبُّ ما قبلها وما ما أشارت إليه الصورة البيانية الرائعة في قوله (رجع كيوم ولدته أمه) والعبارة كناية عن نقائه من الخطايا، والتشبيه بهيئة المولود يشير إلى النقاء من الخطايا مع نقاء القلب يعرف هذا من نقاء قلب الطفل، كما يشير إلى تعلقه بربه كتعلق الجنين الفطري بأمه، وهو توكيد للمغفرة التامة ينفي وهم المبالغة من عقل من استعظم خطاياه. والله أعلم.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: الشرط.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: فضل وثواب الحج المبرور.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: تهذيب وتقويم سلوك الإنسان.

أولاً - من أساليب الدعوة: الشرط:

حيث جاء في الحديث: (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه)، ومما لا شك فيه أن أسلوب الشرط من أساليب الدعوة التي تلفت انتباه المدعو وتشده إلى معرفة الجواب، وأسلوب الشرط يبين من جانب آخر ارتباط الشرط بالجزاء، والعمل بالثواب، ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الشرط قول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[2].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: فضل وثواب الحج المبرور:

حيث جاء في الحديث: "رجع كيوم ولدته أمه"، قال النووي: (والرفث اسم للفحش

---

(١) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٢) سورة الشورى، آية: ٢٠.

من القول وقيل هو: الجماع ومعنى: كيوم ولدته أمه أي بغير ذنب، وأما الفسوق فالمعصية)[(١)].

وقال الطيبي: "قال الأزهري: والرفث هو كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة، وقوله: (من حج) شرط وجوابه: (رجع) أي: صار، والجار والمجرور خبر، ويجوز أن يكون حالاً، أي: رجع مشابهًا لنفسه في البراءة عن الذنوب في يوم ولدته أمه"[(٢)].

وقال ابن حجر: "قال ابن خالويه: المبرور المقبول، وقال غيره: الذي لا يخالطه شيء من الإثم، ومما قاله القرطبي: إنه الحج الذي وفيت أحكامه ووقع موقعًا لما طلب من المكلف على الوجه الأكمل، وقوله: (رجع كيوم ولدته أمه)، أي: بغير ذنب، وظاهره غفران الصغائر والكبائر والتبعات"[(٣)].

ومما هو معلوم أن في عبادة الحج إظهار العبودية وشكر النعمة، ولكي ينال العبد ثواب الحج المبرور "فإنه يجب على من يريد بالحج طاعة وتقربًا إلى الله تعالى، ويطمع في قبوله وإثابته عليه أن يقصد بحجه وجه الله تعالى لا رياء ولا سمعة، وإن كنت ظلمت غيرك في ماله أو عرضه فرد إليه حقه واطلب منه أن يسامحك، وأن يكون مالك من كسب حلال طيب لا شبهة فيه، وأن تتوب إلى الله قبل سفرك توبة نصوحًا من جميع الذنوب التي ارتكبتها طول حياتك وتنوي عدم الرجوع إلى معصية قط"[(٤)].

إن الأصل في البشر والجن عدم العصمة والوقوع في الذنوب، والمؤمنون لذلك مطالبون بالتوبة والاستغفار، وهم خير الثقلين، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٥)]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾[(٦)]،

---

(١) شرح صحيح مسلم ٨٤٥.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٢١٩/٥.

(٣) فتح الباري ٤٤٦/٣ - ٤٤٧.

(٤) الدين وأركان الإسلام، الحاج عباس كرارة، ط/٢ مركز الحرمين مكة المكرمة: ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٥١٠.

(٥) سورة النور، آية: ٣١.

(٦) سورة هود، آية: ٣.

والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة. ويستثنى الأنبياء عليهم السلام فهم معصومون، وإذا وقعت منهم بعض الصغائر التي تظهر بها بشريتهم منعًا للغلوّ فيهم، فإنهم ينبهون عليها ويغفرها الله لهم، وهذا نوع من العصمة، كما حدث لآدم حين أكل من الشجرة، قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(١)، وكما حدث ليونس عليه السلام حين خرج مغاضبًا لقومه بدون إذن من الله فعوقب بالحبس في بطن الحوت، ثم تاب فتاب الله عليه: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ﴾(٢).

والحج الذي لا رفث فيه ولا فسوق باب عظيم من أبواب مغفرة الذنوب، ما دام أن الجن والإنس غير معصومين، فالحج يخرج صاحبه من ذنوبه كلها ويرجع كيوم ولدته أمه، والراجح أن هذه الذنوب تشمل الصغائر والكبائر، قال ابن حجر في قوله: (رجع كيوم ولدته أمه) أي: بغير ذنب، وظاهره غفران الصغائر والكبائر والتبعات، وهو من أقوى الشواهد لحديث العباس بن مرداس المصرح بذلك، وله شاهد من حديث ابن عمر في تفسير الطبري"(٣).

قال العيني: "وظاهره الصغائر والكبائر، وقال صاحب (المفهم): هذا يتضمن غفران الصغائر والكبائر والتبعات، ويقال هذا ما يتعلق بحق الله لأن مظالم الناس تحتاج إلى استرضاء الخصوم"(٤).

والحج عبادة جماعية وعندما يسافر الحجاج من بلادهم وكذلك عندما يؤدون المناسك، فغالبًا ما يكونون في مجموعات، ويشرع في الإسلام في مثل هذه الحالة أن تُؤَمّر المجموعَة واحدًا منها، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

---

(١) سورة البقرة، آية: ٣٧.

(٢) سورة الصافات، الآيتان: ١٤٣ - ١٤٤.

(٣) فتح الباري ٣/٣٨٣.

(٤) عمدة القاري ١٠/١٥٩.

((إِذَا خَرَجَ ثَلاَثَةٌ فِي سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهُمْ))[1]، وهذا معناه التربية على الانتظام، وعلى الالتزام بالحياة المدنية والاجتماعية، فيترتب في هذه الإمارة أمر الطعام، وأمر النوم، وأمر التوقف، وأمر التحرك، ويتم التعرف من أفراد المجموعة على بعضهم بعضًا، والتناوب بينهم في القيام بالخدمات، ومساعدة الضعيف، ومواساة المحتاج والمريض، وتعميق معاني الأخوة والمحبة والتناصح، والقيام بتعليم الجاهل ودعوة الغافل، وأداء المناسك بإتقان، وبذلك تمضي جميعًا قضايا التربية، والدعوة، وإصلاح النفوس، والسلوك الاجتماعي القويم، تحت مظلة هذه العبادة العظيمة، عبادة الحج.

كما أن اختلاط مجموعات الحجيج واحتكاك بعضها ببعض ينتج عنه التعارف والتأسي بالإيجابيات ونشرها وتعميمها، والتقاء مختلف الطاقات المتخصصة واستفادة بعضها من بعض، كالعلماء والدعاة والمصلحين السياسيين وعقد المؤتمرات والندوات، وتبادل الخبرات، وتنشيط التجارات والصناعات، وعقد الاتفاقات، والاستفادة من التنوع في بلاد المسلمين في شتى المجالات.

كما أنه يتم في هذه الأجواء الروحانية تفادي السلبيات، وعزل المنكرات وتنمية أنواع المعروف، فإذا وقع أحد في شيء من الرفث أو الفسوق أو الجدل فسوف يجد مسلكه غريبًا في مجتمع الحجاج، ولن يجد من يسايره، فيضطر للعودة للجادة، ويتعود ذلك في مدى كافٍ واسع مبارك من الزمان والمكان والإخوان.

وفترة الذهاب إلى الحج والأداء ثم العودة مع البرنامج الإيماني المكثف في تلك الأوساط الفعالة المؤثرة... كلُّ ذلك يجعل عبادة العمر تترك آثارها وبصماتها العميقة على الحاج على مدى العمر! بل تعيد صياغة وصناعة حياته من جديد، فيعود إلى وطنه وأسرته وعمله شخصًا جديدًا، داعية ومعلمًا ومربيًا بلسان الحال والمقال، منفقًا من مزادة التقوى، غارفًا من مستودع المشاعر والذكريات، ينفذ إلى القلوب بفعل المغفرة التي أعادته إلى جاذبيته القديمة كيوم ولدته أمه، فكما كان يجذب القلوب بطفولته البريئة فهو بعد الحج المبرور والذنب المغفور يجذبها بشفافيته المضيئة.

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٦٠٨، وقال الألباني حسن صحيح (صحيح سنن ابي داود ٢٢٧٢).

ثالثًا - من أهداف الدعوة: تهذيب وتقويم سلوك الإنسان:

حيث جاء في الحديث: "من حج فلم يرفث ولم يفسق"، إن من فوائد الحج أن يهذب سلوك الإنسان فيبتعد عن فحش القول والجدال والمراء ويتمرن على ذلك، وهذا هدف رئيس من أهداف الدعوة، قال تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾[1]، قال الطيبي: "قال سعيد بن جبير في قوله تعالى: (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج): الرفث: إتيان النساء، والفسوق: السباب، والجدال: المراء، يعني مع الرفقاء والخدم والمُكَارِين، وإنما لم يذكر الجدال في الحديث اعتمادًا على الآية"[2].

وفي بيان آثار فريضة الحج على سلوك الإنسان قال الشيخ: السيد سابق: "إن الحج نوع من السلوك، ولون من ألوان التدريب العملي على مجاهدة النفس من أجل الوصول إلى المثل العليا، فملابس الإحرام خالية من الزينة، ومن كل ما يثير في النفس دواعي العُجّب والخيلاء، والمرء حينما يدخل في أعمال الحج يجب عليه أن يعيش في جو من العفاف والأدب العالي فلا يتدلى إلى رفث ولا يميل إلى فسوق، ولا ينطق بكلمة طائشة، أو ينظر نظرة فاحشة، وفي الحج يحرص المسلم على فعل الخير وهو عمل إيجابي، كل مؤمن يهتم به ويحرص عليه، وفي الحج يحدث التعارف بين الشعوب الإسلامية، وتتوحد غاياتهم التي توجههم الوجهة التي تأخذ بأيديهم إلى حياة القوة والعزة والعلم والعمل، بما يفيد بعضهم من بعض ومن تبادل الآراء المختلفة، والثقافات المتنوعة"[3].

ومن خلال هذا يتبين أن من أهداف الدعوة الرئيسة: تقويم وتهذيب السلوك الإنساني من خلال فريضة الحج.

إن الرفث والفسوق والجدال ممنوع في الحج لقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٥/٢١٩.

(٣) إسلامنا ص ١٢٦ - ١٢٧.

﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾[١]، وهنا في الحديث ضمان بأن من لم يرفث ولم يفسق يرجع مغفورًا له، خاليًا من الذنوب، كيوم ولدته أمه.

"وأما الفسوق فهو يشمل المعاصي كلها، كما ذكر هؤلاء الأئمة، لأن أصل الفسوق هو الخروج، والمقصود الخروج عن طاعة الله بالوقوع في أي معصية"[٢].

وأما الجدال فهو التنازع حول أي موضوع كما يفهم من كلامهم، ولم يرد ذكره في الحديث، وإنما ورد في الآية، وقد نقل ابن حجر في الموضع المذكور أنه لم يذكر الجدال في الحديث، كما ذُكر في الآية، على طريق الاكتفاء، أو أن الحَسَنَ منه غير مؤثر، كما إذا كان حول أحكام الحج، وأما الفاحش فإنه داخل في عموم الرفث المنهي عنه.

وأما لماذا لم يتم الاكتفاء بالفسوق؛ إذ إنه يدخل في الفسوق الرفث المنهي عنه والجدال المنهي عنه، فالجواب أن الجدال قد أمكن الاكتفاء فيه كما في الحديث، وإنما ذُكر في الآية من باب التفصيل، ومن باب ذكر الخاص بعد العام، وأما الرفث فإن له خصوصية، وهو أن نوعًا منه وهو الجماع يفسد الحج بالإجماع، إذا كان قبل الوقوف بعرفة، وعلى صاحبه حج قابل - أي في العام القادم - والهدي كما ذكر الائمة. ولهذه الخصوصية كان إيراد الرفث سواء في الآية أم في الحديث، أم سائر المعاصي المعبر عنها بالفسوق فلا تصل إلى حد إفساد الحج، بل يلزم في بعضها دمٌ كما هو مفصّل في كتب الفقه، قال ابن تيمية: "وليس في المحظورات ما يفسد الحج إلا جنس الرفث، فلهذا ميز بينه وبين الفسوق. وأما سائر المحظورات: كاللباس، والطيب، فإنه وإن كان يأثم بها، فلا تفسد الحج عند أحد من الأئمة المشهورين"[٣].

إن للعبادات آثارًا عظيمة في حياة المسلم، ومن ذلك آثارها في الجانب الأخلاقي. والحج إحدى هذه العبادات، وهو عبادة بدنية ومالية مهذِّبة لما اعتادته الأبدان والنفوس،

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٢/٤٠١.

(٣) مجموع الفتاوى ٢٦/١٠٨.

مقوّمة لسلوكيات الشخص في هذه العبادة الجماعية عندما يختلط بالآخرين، فالمنع من الرفث فيه ضبط للأقوال والأفعال، بحيث يتحكم الشخص في ميوله ورغباته ولو كانت مباحة في الأصل، ويجتنب الجدال إذا خرج عن الإطار المسموح به، لأنه يصير فاحشًا وداخلاً في الرفث كما مرّ، واختلاط الحاج بإخوانه الحجاج ومن تجمعه بهم الطريق ووسائل النقل، وإدارات التعامل ونحوهم، تجعل الحاج يعيش طوال فترة الإحرام، والحج وهو في حال رقابة وحرص على ضبط لسانه، وضبط تصرفاته، وما أكثر ما يتفلت اللسان! وليس هنالك ما هو أحوج إلى طول حبس من اللسان؛ بحيث يقتصر الحاج على الكلام المعروف البعيد عن أي لون من الفحش، أو المغالبة، ويشغل لسانه بأنواع الذكر. فهذا لا شك سمو بخلق الحاج بحيث تستسلم له نفسه بالانضباط في المباح فضلاً عن غير المباح ولا يستسلم لها.

وأما الفسوق فهو الوقوع في المعاصي بشكل عام، ومنها الأمور المنهي عنها أثناء الإحرام، وهي الأمور المحددة التي بالالتزام باجتنابها تتغير حياة المحرم حتى في مظهره وبرنامجه اليومي، فإذا كان عدم الالتزام بذلك فسوقًا، فكيف بما هو محرمٌ في سائر الظروف؟!

إن الامتناع عن الرفث والفسوق بحزم، مدة الإحرام، هو أكثر من الدخول في دورة موسمية نموذجية؛ فالترغيب والترهيب في دورات البشر لا يرتقيان أبدًا إلى مستوى الترغيب والترهيب إذا كانا من الرب الرقيب الحسيب! ومن الذي يستطيع أن يجمع تلك الأعداد الهائلة من مختلف الأجناس في زمان ومكان محددين بكل ذلك الانضباط؟! لكي تعود مجموعات هذه الأعداد بالنتائج الطيبة، والشمائل المستقيمة إلى مختلف البلاد، يعودون بالأخلاق المكتسبة، إضافة إلى غفران شامل لجميع الذنوب السالفة، وتطهير تام من جميع الأدران الماضية؛ إنها تحلية وتخلية، تحلية بالأخلاق وتخلية عن جميع الذنوب، إضافة إلى أداء ركن الإسلام: الحج، وقضاء فريضة العمر بزيارة بيت الله، والسياحة في أرض الله، والتشرف بعيش أفضل الأوقات في أفضل البقاع، (من حجّ فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) ولله الحمد والمنة.

الحديث رقم (١٢٧٧)

١٢٧٧- وعنه: أنَّ رسول اللهِ ﷺ، قال: ((العُمْرَةُ إِلَى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالحَجُّ المَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلاَّ الجَنَّةَ)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

أبو هريرة: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٧).

غريب الألفاظ:

كفارة: ماحية وساترة[٢].

المبرور: لا يرتكب صاحبه فيه معصية[٣]، وقيل: هو المقبول [٤].

الشرح الأدبي

لقد بني الحديث الشريف علي الأسلوب الخبري الذي يبث الأمل، والتفاؤل، والاستبشار في قلب المتلقي، حيث أوضح المصطفي عليه الصلاة والسلام – أن أعمال العمرة، تكون كفارة لما سبقها من ذنوب الإنسان التي سبقتها، وكلمة " كفارة " توحي بأن الذنوب كثيرة نظرا لما في الفاء " من تشديد. والجملة الثانية: "والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة " فيها قصر بلاغي حقيقي، حيث قصر الموصوف (وهو المؤمن الذي يقوم حجه علي البر) قصره علي صفة (دخول الجنة)، وبقي علي المؤمن أن يعيد النظر في حجه هذا: هل هو مبرور أم لا ؟. الجدير بالذكر أن الألفاظ التي جاءت في الحديث معبرة، وموحية، ومنتقاة. فلفظ " العمرة " من الإعمار ويشير إلى إعمار القلب بالطاعة، والمعروف بعد تخريب الشيطان له. بدفعه إلى المعاصي، ولفظ " مبرور " يوحي بالبر والتقوى. ولفظ: "الجنة" يوحي للنفس بكل متاع تهفوا إليه حسي أو معنوي في ثوبه الأخروي المصبوغ بصبغة الخلود.

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٧٣)، ومسلم (١٣٤٩/٤٣٧) ولفظهما سواء

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ك ف ر).

(٣) رياض الصالحين ٤٥٣.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ر ر).

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١ - فضل العمرة: الحديث ظاهر في فضيلة العُمْرة، وأنها مكفرة للخطايا الواقعة بين العمرتين(١).

٢ - حكم الاعتمار قبل الحج: في الحديث إشارة إلى جواز أداء العمرة قبل الحج(٢).

٣ - حكم تكرار العمرة في السنة الواحدة: ذهب جمهور الفقهاء (الحنفية، وبعض المالكية، والشافعية، والحنابلة وعلي، وابن عمر، وابن عباس، وأنس، وعائشة، وعطاء، وطاووس، وعكرمة) إلى استحباب تكرار العمرة في السنة الواحدة مرارًا(٣). واستدلوا على ذلك بحديث الباب، وبأن عائشة رضي الله عنها اعتمرت في شهر مرتين بأمر النبي ﷺ عُمْرةً مع قِرَانها وعمرة بعد حجها(٤).

وذهب المالكية في المشهور، والحسن، وابن سيرين إلى كراهة أن يعتمر في السنة الواحدة أكثر من مرة(٥).

وذهب القاضي وآخرون إلى أنه لا يعتمر في الشهر أكثر من عمرة(٦).

واستدلوا على ذلك بأن النبي ﷺ لم يفعله(٧).

ويناقش هذا: بأن عدم فعل النبي ﷺ لا يدل على عدم الجواز بدليل أن النبي ﷺ أذن لعائشة في أن تعتمر في شهر مرتين ولو لم يكن جائزًا لما أذن لها(٨).

---

(١) شرح صحيح مسلم ١١٨/٩.

(٢) الجوهرة المنيرة ١٥٢/١، مواهب الجليل ٤٦٨/٢، مغني المحتاج ٢٨٦/٢، كشاف القناع ٤١٠/٢، فتح الباري ٧٣١/٣.

(٣) حاشية رد المحتار ٤٧٢/٢، مواهب الجليل ٤٦٧/٢-٤٦٨، مغني المحتاج ٢٢٤/٢، المغني ٩٠/٣، شرح صحيح مسلم ١١٨/٩، فتح الباري ٧٣٠/٣، نيل الأوطار ٢٨٣/٤.

(٤) المغني ٩٠/٣.

(٥) مواهب الجليل ٤٦٧/٢-٤٦٨، المغني ٩٠/٣، شرح صحيح مسلم ١١٨/٩.

(٦) شرح صحيح مسلم ١١٨/٩، فتح الباري ٧٣٠/٣، نيل الأوطار ٢٨٣/٤.

(٧) المغني ٩٠/٣.

(٨) المغني ٩٠/٣.

والراجح هو ما ذهب إليه جمهور الفقهاء، لأن جميع السنة وقت للعمرة فصح في كل وقت منها[١].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: الحث على الاستزادة من العمرة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: ثواب الحج المبرور وأثره في سلوك المسلم.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

أولاً - من موضوعات الدعوة: الحث على الاستزادة من العمرة::

يتضح هذا من الحديث: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما)، في هذا الحديث بيان أن الذنوب ما بين العمرتين مكفَّرة، وأن الحج المبرور، أعظم من ذلك أثرًا، ليس له جزاء إلا الجنة.

أي أن هنالك فرقًا ما بين التكفير لما بين العمرتين من الذنوب، وبين ثمرة الحج، وهذا يؤكد ما نقلناه في شرح الحديث السابق من أن الحج يكفر الذنوب الصغائر والكبائر، ويبدو أن ذلك بسبب مشقة الحج، وبسبب العتق الذي يكون يوم عرفة، وغير ذلك. وأما التكفير للذنوب التي بين العمرتين فهو تكفير للصغائر فقط كغالب العبادات، ومما يدل على ذلك، الحديث الذي عند مسلم عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: ((الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ. وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ. وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ. مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ. إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ))[٢]، وقد ذكر ابن عبدالبر أن بعض المنتمين إلى العلم في عصره قال بأن الكبائر والصغائر تكفرها الصلاة والطهارة ونحوها عملاً بظاهر بعض الأحاديث والآثار، وذكر أن هذا لا يتفق مع مثل قوله تعالى: ﴿ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[٤]، وأنه لو كانت

---

(١) شرح صحيح مسلم ١١٨/٩.

(٢) أخرجه مسلم ٢٣٣.

(٣) سورة التحريم، آية: ٨.

(٤) سورة النور، آية: ٣١.

الطهارة والصلاة وأعمال البر مكفرة للكبائر، والمتطهر والمصلي غير ذاكر لذنبه الموبق ولا قاصد إليه، ولا حضره في حينه ذلك أنه نادم عليه، ولا خطرت خطيئته المحيطة به بباله، لما كان لأمر الله عز وجل بالتوبة الخاصة معنى، ولكان كل من توضأ وصلى يُشهد له بالجنة بمجرد أن يسلم من الصلاة، وإن ارتكب قبلها من الموبقات ما شاء، وهذا لا يقول به أحد ممن له فهم صحيح واعتقاد سليم، واستدل بالحديث الذي عند مسلم المذكور قبل قليل... إلخ.

وذكر أن معنى قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[١]، أنه باجتناب الكبائر يتم تكفير الصغائر بالصلاة والصوم ونحوها، وأنه إذا لم يتم اجتناب الكبائر، ولا التوبة الخاصة من كل منها، فإنه لا يتم الانتفاع بتكفير الصغائر، وهذا قبل الموت، وأما بعده فمصير مرتكب الكبائر إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له"[٢].

وقد ذكر ابن حجر: "أن من ترك الصلوات ومثلها الطهارة والصوم ونحو ذلك، أنه يكون مرتكبا للكبائر غير مجتنب لها فلا يتم التكفير للصغائر، فتلتقي بذلك النصوص"[٣].

والخلاصة أن أغلب العبادات تكفر الصغائر، ويبقى لبعض العبادات خصوصيتها في تكفير جميع الذنوب، ومنها الكبائر ما عدا حقوق بني آدم، ومن هذه العبادات الحج كما سبق، وكذلك الجهاد قال النووي عند شرح حديث (أرأيتَ إن قُتِلَتُ في سبيل الله أتكفر عني خطاياي، فأجابه النبي ﷺ بـ (نعم) واستثنى الدَّين[٤]، قال النووي: "فيه هذه الفضيلة العظيمة للمجاهد وهي تكفير خطاياه كلِّها إلا حقوق الآدميين"[٥].

---

(١) سورة النساء، آية: ٣١.

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ابن عبدالبر ٤/٤٤ - ٥٠.

(٣) فتح الباري ١٢/٢.

(٤) الحديث أخرجه مسلم ١٨٨٥.

(٥) شرح صحيح مسلم ٢٩/١٣.

والحديث يدل على جواز تكرار العمرة في السنة.

قال النووي: "هذا ظاهر في فضيلة العمرة، وأنها مكفرة للخطايا الواقعة بين العمرتين، والجمهور على استحباب تَكْرَار العمرة في السنة الواحدة مرارًا، وقال مالك وأكثر أصحابه: يكره أن يعتمر في السنة أكثر من عمرة، قال القاضي: وقال آخرون: لا يعتمر في شهر أكثر من عمرة.

واعلم أن جميع السنة وقت للعمرة، فتصح في كل وقت منها إلا في حق من هو متلبس بالحج، فلا يصح اعتماره حتى يفرغ من الحج، واختلف العلماء في وجوب العمرة فعند الجمهور أنها واجبة، وقال مالك وأبو حنيفة وأبو ثور: هي سنة وليست بواجبة"(١).

وذكر ابن حجر: "أن الحديث يدل على استحباب الاستكثار من الاعتمار، وجاء بنحو كلام النووي رحمه الله، وأجاب عن الاستدلال بأن الرسول ﷺ لم يفعلها إلا من سَنَةٍ إلى سَنَةٍ، بأنه كان ﷺ يترك الشيء وهو يستحب فعله لرفع المشقة عن أمته، وقد ندب إلى تكرار العمرة بقوله، فثبت الاستحباب من غير تقييد، وذكر ابن حجر أن الأثر عن أحمد أن المعتمر لابد أن يحلق أو يقصر، فلا يعتمر بعد ذلك إلى عشرة أيام ليمكن حلق الرأس فيها.

وفي الحديث إشارة إلى جواز أن يؤدي الشخص العمرة ولو لم يكن قد سبق له الحج في أي مرة من قبل، والمقصود أنه يجوز أن يعتمر في أي وقت حتى ولو لم يكن قد حج. ولا تدخل في ذلك عمرة التمتع؛ لأنه إنما يعتمر بعمرة مرتبطة بحج سيكون بعدها مباشرة فليس المقصود هذا.

وقد بوّب البخاري بقوله: (باب من اعتمر قبل الحج) ثم ذكر بسنده أن عكرمة بن خالد سأل ابن عمر رضي الله عنهما عن العمرة قبل الحج، فقال: لا بأس. قال عكرمة: قال ابن عمر: اعتمر النبي ﷺ قبل أن يحج"(٢).

وقال ابن حجر أيضًا: "قوله: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما) أشار ابن عبد البر

---

(١) شرح صحيح مسلم ٨٤٤.

(٢) فتح الباري ٥٩٨/٣.

إلى أن المراد تكفير الصغائر دون الكبائر قال: وذهب بعض العلماء في عصرنا إلى تعميم ذلك، ثم بالغ في الإنكار عليه، وفي الحديث دلالة على استحباب الاستكثار من الاعتمار خلافا لقول من قال: يكره أن يعتمر في السنة أكثر من مرة "[١].

وقال ابن القيم: "وفي قوله ﷺ: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة) دليل على التفريق بين الحج والعمرة في التكرار، وتنبيه على ذلك، إذ لو كانت العمرة كالحج لا تفعل في السنة إلا مرة لسوّى بينهما ولم يفرق، وروى الشافعي عن علي رضي الله عنه أنه قال: اعْتَمِرْ في كل شهر مرة، وعن سويد بن أبي ناجية عن أبي جعفر قال: قال علي رضي الله عنه: اعْتَمِرْ في الشهر إن أطقت مرارًا، وعن بعض ولد أنس أن أنسًا رضي الله عنه كان إذا كان بمكة فحمّم رأسه[٢] خرج إلى التنعيم فاعتمر، وقال ابن الموّاز: وتكرار العمرة أرجو أن لا يكون به بأس وقد اعتمرت عائشة رضي الله عنها مرتين في شهر ولا أرى أن يمنع أحد من التقرب إلى الله بشيء من الطاعات، ولا من الازدياد من الخير في موضع، ولم يأت بالمنع منه نص، وهذا قول الجمهور"[٣].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: ثواب الحج المبرور وأثره في سلوك المسلم:

يتضح هذا من الحديث: (والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)، قال النووي: "المبرور هو الذي لا يخالطه إثم مأخوذ من البر وهو الطاعة، وقيل: هو المقبول، ومن علامة القبول أن يرجع خيرًا مما كان ولا يعاود المعاصي، وقيل: هو الذي لا رياء فيه، وقيل: الذي لا يعقبه معصية، وهما داخلان فيما قبلهما، ومعنى ليس له جزاء إلا الجنة: أنه لا يقتصر لصاحبه من الجزاء على تكفيره بعض ذنوبه بل يعده أن يدخل الجنة"[٤].

وقال ابن علان: "وقوله: (الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)، يحتمل أن يكون من جزائه إلهام صاحبه التوبة من كل ذنب، وتوفيقه لذلك، وحفظه من المخالفة في عمره

---

(١) المرجع السابق ٦٩٦/٣.

(٢) أي: اسود رأسه بعد الحلق بنبات شعره، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ح م م).

(٣) زاد المعاد ٩٨/٢ - ١٠٠ بتصرف.

(٤) شرح صحيح مسلم ص ٨٤٤.

فيدخل الجنة مع الفائزين"[١].

والحج هو التعبد لله عز وجل بأداء المناسك ففيه تبرز حقيقة العبودية والإيمان "إن الحج مدرسة يتعود فيها المسلم على الصبر، ويتذكر فيها اليوم الآخر وأهواله، ويستشعر فيه لذة العبودية لله، ويعرف عظمة ربه وافتقار الخلائق كلها إليه، والحج موسم كبير لكسب الأجور، تضاعف فيه الحسنات، وتكفر فيه السيئات يقف فيه العبد بين يدي ربه مقرًا بتوحيده، معترفًا بذنبه وعجزه عن القيام بحق ربه، فيرجع من الحج نقيًا من الذنوب كيوم ولدته أمه، وفي الحج تذكير بأحوال الأنبياء عليهم السلام وعبادتهم ودعوتهم وجهادهم وأخلاقهم وتوطين النفس على فراق الأهل والولد، والحج ميزان يعرف به المسلمون أحوال بعضهم، وما هم عليه من علم أو جهل، أو غنى أو فقر أو استقامة أو انحراف"[٢].

وعندما يعلم المسلم بهذا الحديث وأمثاله؛ فإنه يترسخ لديه الشعور الملازم بطبيعة الإنسان وأنه مذنب كثيرُ الخطايا، وهذا معناه الشعور الإيجابي بالنقص الذي يدفع الإنسان إلى العمل على التقليل من الذنوب، والأخذ بأسباب التخلص منها، سواء عن طريق الابتعاد عنها عن مقارفتها، أو عن طريق محوها بعد الوقوع فيها، وذلك بالمكفرات كالعبادات ومنها: العمرة المتكررة، والحج المبرور.

كذلك فإن الشعور الإيجابي بالنقص، يجعل المسلم بعيدًا عن الغرور والعجب والكبر؛ لأنه يعلم نقطة الضعف التي لديه، ولدى سائر البشر غير الأنبياء عليهم السلام، وهي القابلية للذنب، وتذكر ذلك معناه الجزم من المرء بأنه ليس أفضل من سواه، وأنه يوجد من هو أفضل منه، وهو من كان أقل منه ذنبًا وأكثر منه تقوى ويتحقق عنده من خلال هذا اليقين، المعنى الدقيق لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٣].

ومن أجل أن يتخلص المسلم من ذنوبه أولاً بأول، فإن ذلك يدفعه للاهتمام

---

(١) دليل الفالحين ص ١٣٨٥.

(٢) مختصر الفقه الإسلامي، محمد بن إبراهيم التويجري ص ٦٤٧ - ٦٤٨.

(٣) سورة الحجرات، آية: ١٣.

بالمكفرات، وهي في الأساس اجتناب الكبائر قال الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾[1].

ومن اجتناب الكبائر: أداء الفرائض كالصلاة والصوم والحج والطهارة والعمرة عند من يرى أنها واجبة، وهو الراجح.

وهذا الاهتمام بالمكفرات معناه الاهتمام بتعبير آخر بأسباب مكارم الأخلاق، وحسن التعامل هو ثمرة الطاعات، ولا انفكاك بين حسن التعامل مع الله وحسن التعامل مع خلقه.

وحتى يكون التكفير أكمل، فلا بد أن يكون أداء الفرائض والطاعات بشكل عام أكمل وأفضل، وهذا معناه الاهتمام بالأداء وتحسينه من أجل مردود أحسن؛ لأن الحج المبرور على سبيل المثال، وهو حج أعلى وأرقى من الحج الذي ليس له هذا الوصف، ليس له جزاء إلا الجنة.

وبذلك تنشأ علاقة تبادلية نامية مستمرة بين العبادات والأخلاق؛ فإتقان العبادة ينتج تفكيرًا أفضل، وتعاملاً مع الله أحسن، وهذا التعامل يسري في خلق الشخص عمومًا؛ لأن السلوك لا يتجزأ فيتحسن الخَلْق مع الخُلُق، لا سيما والخالق جل وعلا بيّن أن من غايات عبادته تحسين الأخلاق واجتناب الفحشاء والمنكر والرفث والفسوق والجدال.. إلخ، فالالتزام بالأخلاق لا سيما أثناء العبادات معناه تحسين العبادات.

وتحسين العبادات معناه: أن يظهر الأثر على الأخلاق، وهكذا.

وإن الإسلام يربي المسلمين بالعبادات، لأنه بدونها لا يمكن للشخص أن يصلح وضعه، ويتزكى، وتكون سلوكياته أصيلة، وإنما تكون سلوكيات شكلية اصطناعية يحتاج من أجل استمرارها إلى أن يراقبها الآخرون، أو يطلّعوا عليها، أما عند المسلم فإنه يكتفي بعلم الخالق ومراقبته، والذي ينشيء ويثبت لديه الشعور بهذا العلم والمراقبة بل اليقين بهما هو الالتزام بالعبادات؛ فسواء علم الناس أم لم يعلموا فهو على سلوك قويم.

---

(١) سورة النساء، آية: ٣١.

وبذلك تضيع دعاوى اللا دينيين التربوية، عندما يدعون إلى مجتمع شريف ومواطنين شرفاء على حد تعبيرهم، لأنه مهما كانت المحفزات والمشجعات، فإنها تبقى في حيّز رقابة البشر، ولا يمكن أن ترتقي أبدًا إلى رقابة الرقيب الحسيب سبحانه، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾[1].

والمسلم الملتزم بأداء العبادات المتخلق بثمارها يعمل على نشر ذلك في الآخرين فهو مسؤول عن تربية أسرته بالعبادات ودعوتهم إلى ذلك فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: ((كلكم راعٍ وكلُّكم مَسؤولٌ عن رَعيَّته))[2].

ويتفقد زملاءه وجيرانه، ويحثهم، ويدعو إلى ذلك في المجتمع بشكل عام قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾[3].

وبذلك تسود المجتمع ظاهرةُ الطاعات والأخلاقُ والرقابةُ الذاتية، ويكثر الوافدون إلى بيت الله من حُجاج وعُمَّار، وتصلح ظواهر الناس وبواطنهم.

كما أن أسفار الحج والعمرة تنشّط التفاعلات الاجتماعية بين أبناء الإسلام، والتفاعلات العلمية والدعوية والسياسية والتجارية، وتزول الحواجز، وتذوب كثير من الفوارق بسبب ذلك ويعود للمسلمين كثير من ترابطهم وتماسكهم وأخوتهم.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب

يتضح هذا من سياق الحديث، وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة التي تؤثر في نفس المدعو، "والترغيب هو طلب الشيء والحرص عليه والطمع فيه، ولما كان الإنسان مجبولا على حب ما ينفعه، وتقر به عينه، وتطمئن به نفسه، كان لأسلوب الترغيب أهمية قصوى في الدعوة إلى الله، ويجب على الداعية استثمار هذه الفرصة لدى المدعو وتخوله بها"[4].

---

(١) سورة غافر، آية: ١٩.

(٢) أخرجه البخاري ٢٤٠٩، ومسلم ١٨٢٩.

(٣) سورة فصلت، آية: ٣٣.

(٤) وسائل الدعوة، د. عبدالرحيم بن محمد المغذوي ص ١٩٣.

قال الشيخ: محمد الغزالي: "الحث على فعل الخير وأداء الطاعات والاستقامة على أمر الله، جاء في الكتاب والسنة مقرونًا ببشريات كثيرة، وحكم مذكورة، والدعاة عندما يغرون العامة والخاصة باتباع الدين لا يسأمون من تكرار هذه الجوائز المضروبة والعلل الباعثة، فإن الله ولي الأمر وولي النعمة، الخالق من عدم، المطعم من جوع، الكاسي عن عرى، الساتر من فضح فحقه إذا أمر أن نسارع إلى إجابته، وأن يرانا عند إرادته"[1].

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترغيب قوله تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾[2]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾[3].

فيجب على الدعاة استخدام أسلوب الترغيب مع المدعوين والموازنة بينه وبين أسلوب الترهيب.

---

(١) مع الله دراسات في الدعوة والدعاة ص ٣١٢.

(٢) سورة الأحزاب، آية: ٤٧.

(٣) سورة الزمر، آية: ٧٣.

الحديث رقم (١٢٧٨)

١٢٧٨ - وعن عائشة رضي الله عنها، قَالَت: قُلْتُ: يَا رسول الله، نَرَى الجِهَادَ أفْضَلَ العَمَلِ، أفَلاَ نُجَاهِدُ؟ فَقَالَ: ((لَكُنَّ أفْضَلُ الجِهَادِ: حَجٌّ مَبْرُورٌ)) رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ: مبرور: ليس فيه مأثم، أو هو المقبول[2].

الشرح الأدبي

بني هذا الحديث علي أسلوب الحكيم حيث خاطب الرسول الكريم أم المؤمنين عائشة، بما لم تكن متوقعة، فهي تستفهم عن الجهاد، وإذا بالرسول المجتبي ﷺ يجيبها بغير ما تتوقع يقول: " لكن أفضل الجهاد حج مبرور " وهذا معناه أن الحج المبرور يقوم علي الجهاد بالمال، والنفس، والوقت. وأفعل التفضيل: " أفضل " يوحي بأن الجهاد في الذروة من الفضل، والفضيلة. ولا يخفي ما في كلمة: " مبرور " من إشعاعات بيانية تلزم المتلقي بأهمية، وضرورة إتقان العمل، والإخلاص فيه، وأن يقوم علي البر، والتقوى – في وسائله – لكي يثمر ثمارا مرضية – في غايته – ولفظ " لكن " وتقديم الجار، والمجرور (لكنَّ) يدل علي الاختصاص، أي أن هذا الحكم بأفضلية الحج على الجهاد خاص بالنساء لا يتعداهن إلى الرجال.

المضامين الدعوية

أولاً: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب.

ثانيًا: من فقه الداعية: المفاضلة بين الأعمال حسب حال المدعو.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

---

(١) برقم (٢٧٨٤). أورده المنذري (١٦٤٤).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ب ر ر).

رابعًا: من موضوعات الدعوة: عناية الإسلام بالمرأة.

أولاً - من أساليب الدعوة: السؤال والجواب:

حيث جاء في الحديث: (قلت يا رسول الله نرى الجهاد أفضل العمل أفلا نجاهد؟) ومما لا شك فيه أن أسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تبين الحقائق للمدعوين، وترشدهم إلى ما ينفعهم، ويفتح حوارًا بين الداعية والمدعو. والمدعو مطالب أن يسأل عما لا يعرف، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، والداعية مأمور أن يبين للناس ويشرح لهم ويجيب على تساؤلاتهم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب السؤال والجواب قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾[3].

وفي أهمية استخدام الدعاة إلى الله لأسلوب السؤال والجواب يقول الشيخ الميداني: "إن مجالس السؤال والجواب مجالس مفيدة ونافعة جدًا في نشر المعرفة وتثبيتها، وتناقلها بين الناس، بشرط أن تكون الإجابات واضحات جليات مفصّلات لا غموض فيها ولا التباس، وبشرط أن يكون المجيب على علم مؤكد بالجواب الصحيح، وإذا كانت المسألة من المسائل الخلافية عند الفقهاء المعتمدين لدى جمهور المسلمين فليس للمجيب أن يقطع جازمًا بوجهة نظره"[4].

ثانيًا - من فقه الداعية: المفاضلة بين الأعمال حسب حال المدعو:

حيث جاء في الحديث: (لكن أفضل الجهاد حج مبرور)، وذلك حيث أرشد النبي ﷺ أنه في حقهن الحج مقدم على الجهاد، قال ابن علان: "وقوله.. لَكُنَّ: باللام الجارة لضمير خطاب النسوة وهو حال والمراد أي: ليس لَكُنّ الجهاد أفضل، ولَكُنّ

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) سورة الأنفال، آية: ١.

(٤) فقه الدعوة إلى الله تعالى ٢/٦٢.

أفضل منه، لكن حج مبرور، وفي التعبير عنه بالجهاد إيماء إلى عظيم فضله وحض عليه النساء فكيف بالرجال؟"[١].

وقال ابن حجر: "وقوله: (لَكُنَّ)، اختلف في ضبطها فالأكثر بضم الكاف خطاب النسوة، قال القابس وهو الذي تميل إليه نفسي، وهذا يشمل إثبات فضل الحج وجوابها على سؤالها عن الجهاد وسماه جهاداً لما فيه من مجاهدة النفس، والمحتاج إليه هنا كونه جعل الحج أفضل الجهاد"[٢].

وقال ابن عثيمين: "وهذا بالنسبة للنساء فالنساء جهادهن هو الحج، أما الرجال فالجهاد في سبيل الله أفضل من الحج إلا الفريضة، فإنها أفضل من الجهاد في سبيل الله لأن الفريضة ركن من أركان الإسلام"[٣]، ومن هنا يتبين أنه يجب على الداعية أن يفاضل بين الأعمال حسب حال المدعو، ومراعاة أحواله.

"ولقد كان ﷺ يلفت السائل عن سؤاله إلى ما هو أهمّ منه، ومن ذلك حديث أنس رضي الله عنه: أن رجلاً سألَ النبيَّ ﷺ: متى الساعةُ يا رسولَ الله؟ قال: ما أعدَدتَ لها؟ قال: ما أعدَدتُ لها من كثير صلاة ولا صَوم ولا صدَقة، ولكني أُحبُّ الله ورسوله. قال: ((أنتَ معَ من أحبَبْتَ))[٤] ولا شك أن الداعية حينما ينتهج هذا المسلك ويعنى بالإجابة على السؤال لكنه يركز على ما هو أهم منه أو ما ينبغي أن يؤكد عليه كان ذلك عين المصلحة"[٥].

إن في هذا الحديث بيان لأحد الفوارق بين الرجال والنساء، وهو نص من نصوص كثيرة من الكتاب والسنة تدل على أن هنالك فوارق بين الرجال والنساء، ومن هذه النصوص قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ

---

(١) دليل الفالحين ص ١٣٨٦.

(٢) فتح الباري ٣/٤٤٧.

(٣) شرح رياض الصالحين ٢/١٤٢٢.

(٤) أخرجه البخاري ٣٦٨٨، ٦١٦٧، ومسلم ٢٦٣٩.

(٥) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار ص ٩٩ - ١٠٠.

(٦) سورة البقرة، آية: ٢٢٨.

ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَ ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾[٢].

والفرق بين الرجال والنساء في هذا الحديث هو: أن الجهاد فرض على الرجال في الأصل دون النساء، وهذا من حكمة الله ورحمته بالنساء لضعفهن، ولكن النساء في عهد النبي ﷺ عرفن من خلال النصوص فضل الجهاد، بل عرفن أنه أفضل الأعمال، فلذلك أحببن المشاركة فيه كما هو ظاهر من هذا الحديث، وسألت عائشة رضي الله عنها فقالت: (يا رسول الله نرى الجهاد أفضل الأعمال أفلا نجاهد؟).

قال ابن حجر: "نرى الجهاد أفضل العمل، وهو - أي نرى - بفتح النون: أي نعتقد ونعلم، وذلك لكثرة ما يُسمع من فضائله في الكتاب والسنة"[٣].

وقد ورد في بعض ألفاظ هذا الحديث عند البخاري في بداية إجابة الرسول ﷺ: (لا) ثم قال: (لكن أفضل الجهاد حج مبرور).

قال ابن حجر: "يحتمل أن يكون المراد بقوله: (لا) جواب قولهن: ألا نخرج فنجاهد معك، أي ليس ذلك واجبًا عليكن كما وجب على الرجال، ولم يرد بذلك تحريمه عليهن، فقد ثبت في حديث أم عطية أنهن كن يخرجن فيداوين الجرحى"[٤].

فظهر إذن من جواب الرسول ﷺ أن الجهاد ليس واجبًا على النساء كالرجال وذلك لظروفهن كما سبق، وإنما يجوز لهن الخروج فيه بالضوابط الشرعية ومنها: وجود المحرم، ويكون عملهن في الجملة مناسبًا لضعفهن كمداواة الجرحى كما ورد في الحديث الذي أشار إليه الحافظ ابن حجر رحمه الله، ووجههنّ الرسول ﷺ إلى جهاد

(١) سورة النساء، آية: ٣٢.

(٢) سورة النساء، آية: ٣٤.

(٣) فتح الباري ٣٨٢/٣.

(٤) المرجع السابق ٧٥/٤.

أفضل يتناسب مع ظروفهن، ألا وهو الحج المبرور، وفي هذا أحد الردود على أولئك المنهزمين أمام ثقافات المغضوب عليهم والضالين المنادين بالمساواة بين الرجال والنساء دون اعتبار لأحكام الشرع، ولا لواقع النساء وحالهن، ومسؤوليتهن في البيوت، وحملهن وإرضاعهن وضعفهن بشكل عام.

ثالثًا - من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث جاء في الحديث: (لكُنَّ أفضلُ الجهاد حجٌّ مبرور)، وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة التي تحبب المدعو في الطاعة وفعل الخير؛ لأن النفس البشرية بطبيعتها تحب الثواب والأجر والجزاء الطيب على العمل، "إن النفس البشرية مختلفة الطباع منها ما يجلبه الترغيب، ومنها ما يخيفه الترهيب، والدعاة مطالبون بانتهاج الأسلوبين مع الناس كل حسب ما يناسبه على أن يقدموا الترغيب لأنه فعل إيجابي ومطلوب من المسلمين أن يكونوا إيجابيين"[1].

ومن صور استعمال القرآن الكريم لأسلوب الترغيب قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3].

رابعًا - من موضوعات الدعوة: عناية الإسلام بالمرأة:

ويتضح هذا من مضمون الحديث حيث أرشد الرسول ﷺ المرأة إلى ما ينفعها ويتناسب معها، ومع طبيعتها.

ورغم أن الإسلام واضح في منهجه في عدم المساواة المطلقة بين الرجال والنساء، ولأنه منهج رب العالمين فإنه لا يحتاج إلى مجاملة المرأة وتملقها كما تفعل المناهج البشرية الوضعية، رغم ذلك فإنه يراعي الناحية النفسية للنساء من باب الرحمة، وفتح

---

(١) فقه الدعوة، د. بسام العموش ص ٨٦.

(٢) سورة النمل، آية: ٨٩.

(٣) سورة العنكبوت، آية: ٩.

المجال أمامهن لتحقيق الفلاح في الدنيا والآخرة، وتلبية طموحاتهن في الخير كإخوانهن الرجال، ولكن بما يتناسب مع طبيعتهن وفطرتهن، ومن نماذج ذلك ما ورد في هذا الحديث، فإن النساء أردن المشاركة في أفضل الأعمال وهو الجهاد، فدلهن الرسول ﷺ على ما يفي بالغرض على أفضل الوجوه دون أن يلحق بهن عنت، ويتمثل ذلك في الحج المبرور.

وهذا الأسلوب الذي يتميز به الإسلام يوجد توازنًا نفسيًا عند الرجال والنساء على السواء، وهذا التوازن ينتج عنه صحة النفس والسلامة من التعقيدات، ويثمر أخلاقًا سوية وسلوكًا مستقيمًا.

كما أن الإسلام حريص على المحافظة على أخلاق وصفات الرجولة في الرجل، وعلى أخلاق وصفات الأنوثة في المرأة، ويأبى الخلط، ولذلك كان للرجل وظائفه والتزاماته، وللمرأة وظائفها والتزاماتها.

وأما المساواة المزعومة فكما لا يقرها الشرع، فإنه لا يقرها عقل ولا واقع، فالمرأة تحمل وتضع وترضع وتقوم على شؤون الأولاد والبيت، والرجل يقوم على الأعمال الشاقة خارج البيت، وكما لا يمكن للرجل أن يَحْمِل ويُرْضِع لا يمكن للمرأة أن تحمل الأثقال وتقود الشاحنات والقاطرات والقطارات، وتشتغل في الطرقات والمناجم، وتمارس العمليات العسكرية، ولذلك نأى الإسلام بالمرأة فلم يفرض الجهاد عليها في الظروف المعتادة حتى تبقى المرأة امرأة في صفاتها وسلوكها وأخلاقها، وأداء واجباتها المفروضة عليها بحكم أنوثتها، وترك ذلك على الرجال مراعاة لطبائع الأمور.

وكم ستكون الجناية على المرأة لو أنها تقدمت الصفوف العسكرية، وصار ذلك ديدنًا وسلوكًا في سائر الأحوال؟ هل يتناسب مع أنوثة المرأة ولطفها أن تتعرض للقتل الذريع والإعاقات وتقطيع الأوصال والانكشاف المريع؟! وهل يتفق مع أمومتها وحاجة أطفالها إليها في حالة نعومة أظفارهم أكثر من حاجتهم إلى الأب.. هل يتفق ذلك مع تعرضها للقتل في المعارك ومع تعرضها أيضًا للأسر، ثم إذا تم أسرها فهي معرضة لانتهاك العرض والممارسات العبثية، وهذا ما لا يطاق.

إن الإسلام رحيم بالمرأة، وحريص على الحفاظ على سلامتها وكرامتها وأخلاقها ولذلك فإنه عندما أجاز لها الجهاد ولم يفرضه، سمح لها بأن تمارس ما يتناسب مع طبيعتها وخَلْقها ورحمتها، بأن تكون في الصفوف الخلفية لمداواة الجرحى والعناية بهم مع وجود محرمها، وإذا حصلت هزيمة، فيمكنها وهي في الخلف الاتجاه مع من معها إلى مكان الأمان بقدر الإمكان.

إن الإسلام يربي أتباعه على المسابقة إلى الخيرات، والحرص على الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[2].

وبحكم هذه التربية ظهر الحرص من قبل النساء في سؤال الرسول ﷺ ليمارسن الجهاد لأنه أفضل الأعمال.

وهذه الروح موجودة لدى المسلمين رجالاً ونساءً عندما يحظون بالتذكير والتعليم والتربية الحسنة في كل زمان ومكان، بل إن النساء بحكم تميزهن أكثر بالعاطفة يكون تفاعلهن مع الأعمال الصالحة كبيرًا، وهذا ملموس مجرّب عند الدعاة والداعيات عندما ينشطون في صفوف النساء، ويكون التأثير على النساء أيسر وأسهل في الدعوة.

وقد عرف أعداء الإسلام هذا السر، فركزّوا كثيرًا على النساء وخدعوهن بمعسول القول، فصرفوا منهن عبر وسائل التعليم والإعلام ونحوها أعدادًا كبيرة نحو التبرج والانحلال والانحراف، وهم يعلمون مدى تأثير المرأة إذا صلحت أو فسدت، فركزوا على الإفساد، قال الشاعر:

من لي بتربية النساء، فإنها ... في الشرق علّة ذلك الإخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها ... أعددت شعبًا طيب الأعراق[3]

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٤٨.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ٦١.

(٣) من ديوان الرصافي، قافية القاف.

وصدق الرسول -عليه الصلاة والسلام- كما في الصحيح عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: ((ما تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ على الرِّجَالِ مِنَ النِّساءِ))[1]، ويقول كما في الصحيح أيضًا عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ. فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ))[2].

إن المرأة التي تلّقت التربية السليمة وأثرت فيها الدعوة تتحول إلى مربية وداعية تؤثر ولا تتأثر، وتُصلح في بيتها وأسرتها وجيرانها ومجتمعها، وتنشر الخير والأخلاق والعفاف، وتقوّم النفوس وتعمّم الفضيلة، فتنتظم الموازين الاجتماعية، وتعرف المرأة المساحة الواسعة المخصصة لها، ويعرف الرجل كذلك نطاقه المرسوم، ويقف كل جنس عند حدوده، فلا يبغي ولا يطغى قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[3].

لقد وجه الرسول ﷺ عناية النساء إلى المناسب لهن في هذا الحديث عندما توجد عندهن الطاقة والقدرة، وهذا المجال الأليق يستغرق مثل هذه الطاقة ويوفر لهن قدرًا عظيمًا من الأجر والثواب يلحقن به الرجال، وليس في الحديث ما يمنعهن من الجهاد الأصيل بل فيه توجيه إلى الجهاد البديل على طريقة الإسلام في التربية بالبديل، وإقامة النموذج الأرقى. والجهاد الأصيل مسموح به لهن وفق ضوابط بيّنتها نصوص أخرى، ولم يغلقها هذا النص، وإنما فتح الأفق نحو الأمثل.

---

(١) أخرجه البخاري ٥٠٩٦، ومسلم ٢٧٤٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٧٤٢.

(٣) سورة النساء، آية: ٣٢.

الحديث رقم (١٢٧٩)

١٢٧٩- وعنها: أنَّ رسولَ الله ﷺ، قَالَ: ((مَا مِنْ يَوْمٍ أكْثَرَ مِنْ أن يَعْتِقَ اللهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ)) رواه مسلم[١].

ترجمة الراوي:

أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق: تقدمت ترجمتها في الحديث رقم (٢).

غريب الألفاظ:

يُعتق عبدًا: يُحرِّره ويقيه[٢].

الشرح الأدبي

إن التنكير الذي جاء في الحديث في كلمتي: " يوم - وعبد " يدل علي التعميم، لوقوعه في سياق النفي وتقم (من) التي تفيد الاستغراق فلا يوجد يوم من الأيام يكون العتق فيه أكثر من يوم (عرفة). ولفظ: " عبدا " يشير إلى أن مناط المغفرة مرتبط بالعبودية لله، والتقرب إلي في هذا اليوم، والفعل المضارع المسند إلي لفظ الجلالة، لأنه لا يوجد في الكون إلا الله عز وجل الذي يملك رقاب الناس، ويقدر علي أن يعتقهم من النار. والتعبير بالعتق يشير إلى أن النجاة من ذل المعصية التي تحبسه في النار، ولا يحرره منها إلا عتق ربه بعفوه عنه، وزحزحته عن النار، ولفظ " أكثر " أفعل تفضيل يدل على أن عتق الله لرقاب الناس، وعفوه عنهم في كل يوم، ولكنه أعظم ما يكون في يوم عرفة كما يوحي بعظمة المغفرة التي تستغرق الناس يوم عرفة فينجي الله أناسا كثيرين من النار أكثر من أي يوم آخر مما يشير إلى أن المغفرة ليست قاصرة على أهل الموقف بعرفة من الحجاج، وإنما تشمل غيرهم ممن شاركهم بالصيام ليوم عرفة الذي يكفر ذنوب سنة ماضية، ولاحقة.

---

(١) برقم (١٣٤٨/٤٣٦). أورده المنذري في ترغيبه (١٧٤٠).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ع ت ق).

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: فضل يوم عرفة.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: رحمة الله بعباده.

ثالثًا: من مهام الداعية: بيان وإرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم.

أولاً - من موضوعات الدعوة: فضل يوم عرفة:

يتضح هذا من الحديث: (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة)، قال النووي: "هذا الحديث ظاهر الدلالة في فضل يوم عرفة وهو كذلك، وقد جاء في الحديث: (إنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء)[1]، قال القاضي عياض: وقد يريد دنو الملائكة إلى الأرض أو إلى السماء بما ينزل معهم من الرحمة ومباهاة الملائكة بهم عن أمره سبحانه وتعالى"[2].

والمباهاة من الله للملائكة بأهل الموقف في عرفة فيها إظهار المعنى الذي امتاز به هؤلاء المؤمنون، وهي أنه رغم أنهم ليسوا معصومين كالملائكة وإنما تعتريهم الشهوات وأنواع القصور لكنهم جاهدوا أنفسهم وتحملوا المشقات اجتمعوا في ذلك الموقف على ذلك النحو من العبادة والطاعة والذكر، فاستحقوا أن يباهي الله بهم وأن يعتقهم.

ثم قارن النووي بين يوم عرفة وبين يوم الجمعة لورود الحديث عند مسلم في يوم الجمعة أنه خير يوم طلعت فيه الشمس، ثم رجّح أن الأصح أن يوم عرفة هو الأفضل للحديث الذي نحن بصدده، وأنه يُحمل حديث الجمعة على اعتبار أنه أفضل أيام الأسبوع.

وفي لطائف المعارف ذكر ابن رجب الحنبلي: " فضائل متعددة ليوم عرفة منها أنه: يوم إكمال الدين لأنه أنزل فيه قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[3] وأنه يشرع صيامه لأهل الأمصار، لأن صيامه يكفر ذنوب سنتين كما في الصحيح، وأما الحجاج

(١) أخرجه مسلم ١٣٤٨.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٣٤٨.

(٣) سورة المائدة، آية: ٣.

فيشرع لهم عدم الصيام من أجل أن يَتَقوّوا على الذكر والعبادة، ولأن الرسول ﷺ أفطر فيه في الحج كما في الحديث، وأنه الشاهد الذي أقسم الله به في قوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾[١]، فعند أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا وموقوفًا: ((الشاهد يوم الجمعة والمشهود يوم عرفة))[٢]، وإذا وقع يومُ عرفة في يوم الجمعة فقد اجتمع في ذلك اليوم شاهد ومشهود، واجتمعت فيه فضائل اليومين التي منها أنه يوم الوقوف في حجة الوداع للنبي ﷺ ويوم نزول آية إكمال الدين، وفيه ساعة يوم الجمعة.. إلخ فضائل اليومين.

ومن فضائل يوم عرفة: أنه يوم مغفرة للذنوب، ويوم العتق من النار، فلا يوجد يوم مثله في كثرة العتقاء كما في حديثنا الذي نتكلم عليه، وهو يوم دنوّ الله من أهل الموقف، وهو يوم المباهاة، يباهي الله ملائكته بأهل الموقف.

ومن فضائله: أنه يغفر فيه لأهل الموقف جميعًا محسنهم ومسيئهم، فقد أخرج ابن منده في كتاب التوحيد: (إذا كان يوم عرفة ينزل الله إلى سماء الدنيا، فيباهي بهم الملائكة، فيقول: انظروا إلى عبادي، أَتَوْنِي شُعثًا غُبْرًا، من كل فج عميق، أشهدكم أني قد غفرت لهم، فتقول الملائكة يا رب فلان وفلان هو، قال: فيقول قد غفرت لهم. فما يوم أكثر عتيقًا من النار من يوم عرفة)، قال ابن منده: وإسناده حسن متصل. ثم أضاف ابن رجب في لطائف المعارف: "ورويناه من وجه آخر بزيادة فيه وهي: (أشهدكم يا عبادي أني قد غفرت لمحسنهم وتجاوزت عن مسيئهم"[٣].

وقارن ابنُ القيم بين يوم عرفة ويوم النحر يوم الحج الأكبر، واعتبر أن يومَ عرفة يومُ مُقدِّمةٍ ليوم النحر بين يديه يكون فيه الوقوف والتضرع والتوبة والابتهال ثم يكون يوم النحر يوم الوفادة والزيادة وأداء معظم أعمال الحج، فيوم عرفة كالطهور

---

(١) سورة البروج، آية: ٣.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٢٩٩ رقم ٧٩٧٣، وقال محققو المسند: إسناده صحيح على شرط مسلم، ١٣/٣٥٢.

(٣) لطائف المعارف، فيما لمواسم العام من الوظائف، ابن رجب الحنبلي، تحقيق: ياسين محمد السواس ١/٢٩٩.

والاغتسال بين يدي يوم النحر[١].

ويوم عرفة يوم عظيم ومكانه في الإسلام كبير، والدعاء فيه مستجاب ورحمة الله فيه واسعة "إن يوم عرفة هو يوم إكمال الدين، ويوم إتمام النعمة لأن أعظم النعم نعمة الدين التي ينال أهلها السعادتين في الدنيا والآخرة، وقد تمت في ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٢]، وهو يوم الرضوان لأن الله رضى لهم بدينهم الذي تمسكوا به وهو الإسلام، فهي بشارة بشّرهم بها في ذلك اليوم، فلا يوم أكمل ولا أشرف من اليوم الذي بشرهم فيه بإكمال الدين فهذا اليوم يوم صلة الواصلين، ويوم عيد المسلمين"[٣].

ثانيًا - من موضوعات الدعوة: رحمة الله بعباده:

حيث جاء في الحديث: (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة)، ولا شك أن هذا يدل على رحمة الله بعباده ولطفه بهم، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٥]، ورحمة الله واسعة، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[٦]، وجاء في الحديث عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: ((لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي))[٧]، وعن عائشة ﷺ قالت: قال رسول

(١) زاد المعاد ١/٥٤.
(٢) سورة المائدة، آية: ٣.
(٣) الحج "أحكامه - أسراره - منافعه"، الشيخ: عبدالرحمن محمد الدوسري، ص ٨١.
(٤) سورة الشورى، آية: ١٩.
(٥) سورة الأعراف، آية: ٥٦.
(٦) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.
(٧) أخرجه البخاري ٧٤٠٤، ومسلم ٢٧٥١ واللفظ له.

الله ﷺ: ((سَدِّدوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لايُدخلُ أحدًا الجنةَ عملُه))، قالوا: ولا أنتَ يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدَني الله بمغفرة ورحمة))[١]. وفي يوم عرفة تتجلى رحمة الله بعباده بمغفرة الذنوب والعتق من النار.

قال الشيخ محمد الغزالي: "والرحمة في أفقها العالي وامتدادها المطلق صفة المولى تباركت أسماؤه، فإن رحمته عمت الملكوت وشملت الوجود، فحيثما أشرق شعاع من علمه المحيط بكل شيء أشرق معه شعاع للرحمة الغامرة، ولذلك كان من صلاة الملائكة له ما جاء في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾[٢]، وكثير من أسماء الله الحسنى ينبع من معاني الرحمة والكرم والفضل والعفو، إنّ تجاوزَ الله عن خطايا البشر يسبق اقتصاصه منهم وسخَطَه عليهم، وبذلك كان أفضل الرحماء: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[٣]، وما ترى في الأرض من تواد وبشاشة وتعاطف وبر أثرٌ من رحمة الله التي أودع جزءًا منها في قلوب الخلائق، فأرَقُّ الناسِ أفئدة أوفرهم نصيبًا من هذه الرحمة"[٤].

وفي هذا الحديث بيان عظم فضل الله وسعة رحمته إذ أنه يعتق في هذا اليوم أهل الموقف، ومعلوم أنه ينبغي للعباد أن يقتدوا بالله سبحانه فيما يصلح لهم ويناسب من الاقتداء به في صفاته كالرحمة ونحوها، ومما يدل على الاقتداء قوله في الحديث القدسي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ((يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَىٰ نَفْسِي. وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا. فَلاَ تَظَالَمُوا))[٥].

فكما نقتدي بربنا جل وعلا في الابتعاد عن الظلم وتحريمه على أنفسنا، نقتدي به كذلك فيما يصلح لنا كعبيد فنرحم بعضنا بعضًا، فإذا كان الله يرحم عباده، وليس

---

(١) أخرجه البخاري٦٤٦٧ واللفظ له، ومسلم ٢٨١٦.

(٢) سورة غافر، آية: ٧.

(٣) سورة المؤمنون، آية: ١١٨.

(٤) خلق المسلم ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

(٥) أخرجه مسلم ٢٥٧٧.

في حاجة إليهم كما يصنع في يوم عرفة ويغفر لهم منة منه وكرمًا، فلماذا لا نرحم بعضنا بعضًا، وحاجاتنا لبعضنا معلومة؟ ولماذا لا نتغافر ونتسامح؟ والتعايش بين البشر والتمدن في الناس لا يستقيم إلا بالأخلاق الكريمة التي منها التراحم والتسامح.

كذلك فإن من فضل الله ولطفه بعباده دنوه منهم وهم في الموقف بعرفات، وهو دنو يليق بجلاله سبحانه، وهذا الدنو مع صمديته سبحانه وغناه عن خلقه يدل على مبلغ عناية الله بعباده ورعايته لهم، وعلمه بشدة حاجتهم إليه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾(١).

ويستفيد من ذلك من وفقّه الله للخير فيعتني بمن يحتاجون إلى عنايته ورعايته، ويتواضع لهم، ويتبسط معهم، ويتفقدهم مهما ارتفعت منزلته وعلَتْ مكانته، لأنه مهما بلغ شأنه فهو لا زال مخلوقًا وعبدًا، وما زاد الله عبدًا بتواضعه إلا عزًا.

ومن تكريم الله لعباده من الجن والإنس أنه يشكر لهم طاعتهم وصبرهم عليها وتحملهم من أجلها ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾(٢).

بل إنه سبحانه يباهي بهم الملائكة؛ لأن الجن والإنس المسلمين رغم تناوش الأهواء والنزوات لهم جاهدوا أنفسهم وأقبلوا من كل فج عميق حتى جمعهم موقف عرفات، وهذا نوع امتياز لهم، لأن الملائكة وإن كانوا لا يعتريهم أدنى فتور من العبادة إلا أنهم خلقوا معصومين خالين من الأهواء والنزوات.

وشُكر الله لعباده طاعتهم ومباهاته بها فيه تعليم لعباده خلق الشكر وهو من مكارم الأخلاق، ولا يشكر الله من لا يشكر الناس، كما في الحديث، ومن تخلق بخلق الشكر، شكر خالقه على نعمه التي لا تحصى، وشكر الناس على ما يُسْدُون إليه من المعروف.

ثالثًا - من مهام الداعية: بيان وإرشاد المدعوين إلى ما ينفعهم:

يتضح هذا من سياق الحديث حيث أرشد النبي ﷺ المسلمين إلى فضل يوم عرفة

---

(١) سورة فاطر، آية: ١٥.

(٢) سورة فاطر، آية: ٣٠.

وما فيه من مغفرة ورحمة وعتق، لكي يغتنم المسلمون هذا اليوم بالطاعة والإنابة، ومن هنا فإنه من أول مهام الداعية أن يرشد إلى الخير والنفع للمدعوين ويدل عليه كما قال تعالى عن الرسول الكريم ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(١)، وجاء في الحديث الشريف عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((مَنْ دَلَّ علىٰ خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ))(٢).

قال النووي: "وقوله ﷺ: (من دل على خير فله مثل أجر فاعله) فضيلة الدلالة على الخير والتنبيه عليه والمساعدة لفاعله، وفيه فضيلة تعليم العلم ووظائف العبادات لا سيما لمن يعمل بها من المتعبدين وغيرهم، والمراد بمثل أجر فاعله، أن له ثوابًا بذلك الفعل كما أن لفاعله ثوابًا ولا يلزم أن يكون قدر ثوابهما سواء"(٣).

إن من أبرز ما يخرج به الحجيج من حجّهم غفران ذنوبهم من الصغائر والكبائر كما مرّ معنا من قبل، وأعظم يوم يجري فيه الغفران هو يوم عرفة؛ لأنه يوم العتق الأكبر من النار كما هو منطوق الحديث.

وهذا الغفران معناه إلقاء الأدناس والأوزار والأثقال عن كاهل الحاج، فيخرج الحاج من هذه العبادة العظيمة نقيًا نظيفًا خفيفًا، وهذا النقاء، وهذه النظافة وتلك الخفة تعيد إلى القلب سلامته، وإلى النفس اتزانها وإلى الفطرة صفاءها.

ويولد الحجاج بالحج ولادة من جديد..! وإذا كانت التربية تعني التعديلات السلوكية الإيجابية، فإن الحج أعظم من ذلك، وأكبر من أن يكون تربية فحسب. إنه ولادة واستئناف حياة جديدة؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((من حجَّ فلمَ يَرفُثْ ولم يَفْسُقْ رَجَع كيومَ ولدَتْهُ أمُّه))(٤).

---

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٨.

(٢) أخرجه مسلم ١٨٩٣.

(٣) شرح صحيح مسلم ص ١٢١٥.

(٤) أخرجه البخاري ١٨١٩، ومسلم ١٣٥٠.

وعندما ينطلق الحُجّاجُ بعد موسم الحج بنفوس جديدة، فإن كل واحد منهم يحرص على أن يحافظ على نفسه وعلى حياته الجديدة ونقائها وصفائها بما أوتي من قدرة، ويحرص على ألا يتلوث بالذنوب من جديد وألا تأسره الأوزار، ولهذا أثره على الشخص نفسه، إذ إنه مع مرور الأيام، ومع وجود هذا الحرص، ومع مواصلة أداء العبادات، يزداد سموًا وارتقاء وطهارة، وإذا هفا هفوة أو هفوات بادر لتصحيح الوضع وغسل نفسه منها بالتوبة النصوح أو بحج جديد، لينطلق نحو المزيد من جديد.. حياة جديدة متجددة لها أثرها كذلك على أسرة الشخص وقرابته، التي تجد عنده الوفاء بالأمانة والقيام بالمسؤولية والقدوة بالسلوك، والتأثر بالتطبيق السليم.

وإذا خاض صاحب هذه الحياة الجديدة غمار الحياة في المجتمع، فإنه يكون للمجتمع نبراسًا ومقياسًا، يدعو بفعله كما يدعو بلسانه، ويُصلح بحاله كما يصلح بمقاله... حياته الوليدة الجديدة مشروعٌ فعال متنقلٌ في المجتمع، هذا يقتبس منه خُلقًا، وذلك يلتمس منه صفة، وآخر يقتدي به في أسلوب أو سلوك أو عبادة.

وإذا وجد الناس أثر الحج على هذه النحو، اشتاقوا للذهاب إلى الحج، لكي يولدوا من جديد، ولكي يستأنفوا حياة جديدة، تزدهر فيها القيم والأخلاق وحسن التعامل مع الخالق والمخلوقين، وبذلك تتجدد مجتمعات المسلمين.. أعمار جديدة وطاقات رشيدة مديدة.. وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت، ولا أخلاق إذا لم تكن منبثقة من العبودية للخالق العظيم سبحانه جل ثناؤه وتقدست أسماؤه.

الحديث رقم (١٢٨٠)

١٢٨٠- وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنَّ النبيَّ ﷺ، قَالَ: ((عُمْرَةٌ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ[1] حَجَّةً - أَوْ حَجَّةً مَعِي)) متفقٌ عَلَيْهِ[2].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

تَعْدِل: أي تماثل[3].

الشرح الأدبي

يقوم الحديث علي الأسلوب الخبري، وفيه بشارة من الرسول ﷺ لمن يقوم بأداء عمرة في شهر "رمضان"، لأن ثواب العمل فيه يضاعف، فالفريضة فيه تساوي سبعين فريضة فيما سواه، والنافلة فيه تعدل ثواب الفريضة فيما سواه. ومن فضل الله علي المؤمنين أن يجعل العمل اليسير ثوابه كبيرا كهذه النافلة "العمرة" التي جاءت في الحديث بصيغة المفرد، فعمرة واحدة ثوابها يعدل ثواب الحج في غير رمضان. وفي الحديث إيجاز بالحذف تقديره: (أداء عمرة في رمضان..) أو (القيام بعمرة في رمضان) والفعل المضارع: "تعدل" يوحي بعظمة فضل الله، لأنه يدل علي الاستمرار، والتجدد. والمعية الكائنة في قوله: "حجة معي" تؤكد حقيقة الجزاء المذكور، وأنه ليس على سبيل المبالغة كما تحقق الترغيب في هذا العمل الجليل، الذي يتقرب به صاحبه إلي الله تعالي. والله أعلم.

فقه الحديث

يشير الحديث إلى الحكم التالي:

---

(١) لفظهما: (تقضي)، وعند مسلم برقم (١٢٥٦/٢٢١): (تعدل حجة) فقط، والمثبت لفظ المنذري في ترغيبه.

(٢) أخرجه البخاري (١٨٦٣)، ومسلم (١٢٥٦/٢٢٢). ولفظهما سواء، إلا قوله: (تعدل) فإنه عندهما بلفظ: (تقضي). أورده المنذري في ترغيبه (١/١٦٨٥).

(٣) دليل الفالحين ١٣٨٦.

فضل العمرة في رمضان: يشير الحديث إلى العمرة في رمضان تعدل الحجة في الثواب، لا أنها تقوم مقامها في إسقاط الفريضة للإجماع على أن الاعتماد لا يجزئ عن جمع الفريضة[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: بيان فضل العمرة في رمضان.

ثانيًا: من واجبات الداعية: البيان والإيضاح للحقائق.

ثالثًا: من أساليب الدعوة: الترغيب.

رابعًا: من آداب المدعو: طلب معالي الأمور في العبادة.

أولاً - من موضوعات الدعوة: بيان فضل العمرة في رمضان:

حيث جاء في الحديث: (عمرة في رمضان تعدل حجة أو حجة معي)، قال النووي: "أي: تقوم مقامها في الثواب لا أنها تعدلها في كل شيء فإنه لو كان عليه حجة فاعتمر في رمضان لا تجزئه عن الحجة"[2].

وقال الطيبي: "وقوله: (تعدل حجة)، أي: تقابل وتماثل في الثواب، لأن الثواب يفضل بفضيلة الوقت، وهذا من باب المبالغة، وإلحاق الناقص بالكامل ترغيبًا وبعثًا عليه، وإلا كيف يعدل ثواب العمرة ثواب الحج؟"[3].

إن هذا الحديث فيه بيان فضيلة العمرة في رمضان، وأنها تعدل فضيلة حَجّة، بل فضيلة حجة مع الرسول ﷺ، وذلك لأنه اجتمعت فضيلة العمرة، مع فضيلة الزمن وهو رمضان، فحصل من مجموعهما الفضيلة المذكورة.

وليس معنى ذلك أن العمرة في رمضان تجزئ عن فريضة الحج، أو عن نذر الحج، بل إنها تعدله في الأجر فقط، وأما الفريضة أو النذر فلا بد فيهما من الأداء.

---

(١) فتح الباري ٧٣٨/٣، شرح صحيح مسلم ٢/٩، المغني ٩١/٣.

(٢) شرح صحيح مسلم ٧٩٦.

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح ٢١٩/٥.

قال ابن حجر: "قال ابن خزيمة: في هذا الحديث أن الشيء يشبه الشيء ويُجعَل عِدْله إذا أشبهه في بعض المعاني لا جميعها، لأن العمرة لا يُقضَى بها فرض الحج ولا النذر، ثم قال ابن حجر: فالحاصل أن العمرة في رمضان تعدل الحجة في الثواب، لا أنها تقوم مقامها في إسقاط الفرض، للإجماع على أن الاعتمار لا يجزئ عن حج الفرض، ونقل الترمذي عن إسحاق بن راهويه أن معنى الحديث نظير ما جاء أن ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] تعدل ثلث القرآن - يعني في الأجر، لا أنها تجزئ قراءتها ثلاث مرات عن قراءة جميع القرآن - وقال ابن العربي: حديث العمرة هذا صحيح، وهو فضل من الله ونعمة، فقد أدركت العمرة منزلة الحج بانضمام رمضان إليها، وقال ابن الجوزي: فيه أن ثواب العمل يزيد بزيادة شرف الوقت كما يزيد بحضور القلب وبخلوص القصد، ثم ذكر ابن حجر أن هناك من يقول: بأن فضيلة العمرة في رمضان خاصة بالمرأة صاحبة القصة في الحديث، ولكن ابن حجر ردّ ذلك، وذكر أن الظاهر حمله على العموم. ثم أجاب ابن حجر على السؤال: لماذا لم يعتمر الرسول ﷺ في رمضان مع حصول هذه الفضيلة للعمرة في رمضان؟ فقال: لم يعتمر النبي ﷺ إلا في أشهر الحج، وقد ثبت فضل العمرة في رمضان بحديث الباب، فأيهما أفضل؟ الذي يظهر أن العمرة في رمضان لغير النبي ﷺ أفضل، وأما في حقه فما صنعه هو أفضل؛ لأن فعله لبيان جواز ما كان أهل الجاهلية يمنعونه (لأنهم كانوا يمنعون العمرة في أشهر الحج)[2].

ثم نقل ابن حجر عن ابن القيم في زاد المعاد قوله: يحتمل أنه ﷺ كان يشتغل في رمضان من العبادة بما هو أهم من العمرة، وخشي من المشقة على أمته إذ لو اعتمر في رمضان لبادروا إلى ذلك مع ما هم عليه من المشقة في الجمع بين العمرة والصوم، وقد كان يترك العمل وهو يحب أن يعمله خشية أن يفرض على أمته وخوفاً من المشقة عليهم"[3].

---

(١) سورة الإخلاص، آية: ١.

(٢) فتح الباري ٦٠٤/٣ - ٦٠٥.

(٣) المرجع السابق ٧٠٧/٣.

ورمضان شهر العبادات المتعددة، فبالإضافة إلى أنه شهر الصيام فهو كذلك شهر الصلاة والقيام، وشهر الإنفاق والكرم، ويجعله كثير من الناس من أَجْل ذلك شهرَ أداء الزكاة، إضافة إلى أن زكاة الفطر تؤدَّى في آخره، وقد خرج الرسول ﷺ للجهاد فيه مع أصحابه رضي الله عنهم كما في بدر وفي فتح مكة، وهو شهر الذكر وقراءة القرآن، وقد كان جبريل عليه السلام يدارس الرسول ﷺ القرآن في رمضان.. إلخ العبادات التي في رمضان.

ومن هذه العبادات زيارة بيت الله الحرام في هذا الشهر لأداء العمرة.. وكم تترك العمرة من آثار عظيمة بسبب بركة البيت الحرام، والبلد الحرام، والسفر في طاعة الله، والإنفاق في عبادته، ومخالطة سائر المسلمين، ومنهم أولئك الذين يؤدون هذه العبادة، والاكتساب منهم ولا سيما من كانوا من العلماء والدعاة، وغير ذلك من مجالات الخير التي تفتحها العمرة فيستفيدها المسلم من خالقه وكذلك من إخوانه.

ولأهمية إضافة العمرة إلى قائمة العبادات في رمضان فقد تميزت من دون عبادات أخرى بمكانة رفيعة؛ إذ إنها ترتقي في المثوبة والأجر إلى أن تكون في مستوى حَجّة، وليست حَجَّة معتادة، ولكن حَجّة فريدة.. حَجّة مع سيد البشر وإمام الأنبياء، مع رسول الله ﷺ.

إن فائدة العبادات في الجملة كما هو معلوم هو تحصيل المسلم للتقوى منها قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1]، أي أن العبادة تربية للمسلم وتزكية له.

ومن أبرز ما تحدثه هذه التربية والتزكية بعد حسن الصلة والتعامل مع الله، حسن التعامل مع الخلق، وهو ما يعبر عنه بالأخلاق الكريمة.

وإن تشجيع الإسلام وحثه على تكثيف العبادات في هذا الموسم العظيم - شهر رمضان - ومن ذلك حثه وتشجيعه على العمرة فيه، يعني فيما يعني تقوية العلاقة مع

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢١.

الله، وكذلك تقوية العلاقة مع الناس، بسبب ما تصنعه العبادات المكثفة في المواسم المباركة من سلوكيات راقية يُكتب لها الدوام وتصل في النهاية إلى بناء المجتمع المثالي الراقي، ويكفي أن رمضان شهر الامتناع عما لا يليق به كالرفث والصخب والجهل فضلاً عن المحرمات، فإذا أضيف إلى ذلك أن ذلك أيضًا ممنوع في العمرة التي هي أخت الحج، كانت الضوابط والكوابح والموانع مضاعفة في سبيل إعادة صناعة الأخلاق.

ثانيًا - من واجبات الداعية: البيان والإيضاح للحقائق:

يتضح هذا من سياق الحديث، حيث بيّن النبي ﷺ أن العمرة في رمضان تعدل حجة، وهذا من أهم واجبات الداعية بيان وإيضاح الحقائق للمدعوين لأن مهمة الداعية الأولى هي البلاغ والبيان، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

قال السعدي: "والمراد بالذكر: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم الظاهرة والباطنة، وقوله: (لتبين للناس ما نزل إليهم)، هذا شامل لتبين ألفاظه وتبين معانيه وأرشد إلى التفكر فيه لاستخراج كنوزه وعلومه"[3].

ومن نصوص القرآن الكريم التي تبين أهمية البلاغ والبيان قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[4]، وقال جلّ شأنه: ﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[5]، وقال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن

---

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

(٢) سورة النحل، آية: ٤٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٣٩٤.

(٤) سورة الشورى، آية: ٤٨.

(٥) سورة النحل، آية: ٣٥.

تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[١]، وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: ((بلِّغوا عني ولو آيةً))[٢]، وكل هذه النصوص تدلل على أهمية وضرورة البلاغ والبيان للمدعوين.

"إن الوظيفة الأساسية للرسل عليهم السلام ليست إعمار الأرض ولا توفير الرفاهية للناس أو إطعام الفقراء، وإنما تبليغ الرسالة التي حملهم الله تعالى إياها، والأنبياء وخلفاؤهم من الدعاة إذ يقومون بـ (البلاغ المبين) يكونون قد قاموا بالعمل الأساسي الذي تَبْرأ به الذمة أمام الله والبلاغ المبين يُعلم الناس تحمل مسؤولياتهم تجاه أنفسهم ودينهم ومجتمعهم، وما أصيبت الأمم بداء أخطر من فقد الشعور بالمسؤولية، ومن خلال الدعوة يتمكن الناس من معرفة ما يجب عليهم أن يفعلوه، وفي الوقت نفسه الثمن الذي عليهم أن يدفعوه إذا هم لم يستجيبوا، ومن خلال هذا وذاك تتولد الشخصية وفضيلة الشعور بالمسؤولية"[٣].

ثالثًا – من أساليب الدعوة: الترغيب:

حيث جاء في الحديث: (أن العمرة في رمضان تعدل حجة)، وأسلوب الترغيب من أساليب الدعوة التي تحفز المدعو إلى فعل الخير والمداومة عليه، "والترغيب هو تشويق الناس إلى ثواب الله والجنة فمن النفوس من ترغب في الخير وتهفو إلى الهدى، وتشتاق إلى النور ذكر الخير يرغبها ودعوة الإحسان تدفعها، ونور الحق يدفئها"[٤].

ومن صور استعمال القرآن لهذا الأسلوب قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾[٥].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ

---

(١) سورة المائدة، آية: ٩٢.

(٢) أخرجه البخاري ٣٤٦١.

(٣) مقدمات للنهوض بالعمل الدعوي، د. عبدالكريم البكار ص ١٤٣ – ١٤٤.

(٤) الدعوة إلى الله "الرسالة – الوسيلة – الهدف"، د. توفيق الواعي ص ٢٠٠.

(٥) سورة النبأ، آية: ٣١.

ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴾[1].

رابعًا - من آداب المدعو: طلب معالي الأمور في العبادة:

ويتضح هذا من مضمون الحديث حيث إن عصر الرسول ﷺ هو أفضل العصور، وأصحابه رضي الله عنهم الذين عاشوا معه وتربوا على يديه، هم أكرم جيل، وأفضل قبيل، سواء في هذه الأمة أم في سواها، وهم أول من خوطب بقوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾[2].

والأمة تتطلع إلى ذلك العصر، وإلى ذلك الجيل بكل إجلال وتعظيم من أجل الاقتباس والاتباع والاقتداء، ويودّ المسلم لو أنه رأى النبي ﷺ، وعاش معه ولو يسيرًا حتى يشبع شيئًا من مشاعره الفياضة، والجاذبية التي لا تقاوم نحو ذلك العصر وذلك الجيل.

وتترسخ الأمنية ويتضاعف الودّ، إلى أن يتحول ذلك إلى عزم أكيد في إصلاح الواقع ومحاولة التشبه بالرعيل الأول، إلى أن يترك ذلك بصمات تربوية منتشرة هنا وهناك تتمثل منهج السلف الصالح وتدعو إليه.

وهذا العصر الفريد - عصر النبي ﷺ وصحبه رضي الله عنهم - مليء بنماذج الرجال ونماذج الأفعال، ونماذج الأقوال، ولا تحتاج الأمة إلى أن تستورد وعندها هذا الثراء والغنى، بل إنها أكثر من مكتفية، وعندها ما تُصدِّرُه إلى العالمين، ولا يصدق ذلك على عصر لاحق دون عصر، ولا على مِصْرٍ دون مِصْر، بل إن اللاحقين عمومًا إذا عملوا بأعمال السابقين لهم نصيبهم من ذلك الخير الذي لا يتخلف عنهم، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝ وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ ذَٰلِكَ فَضۡلُ

---

(١) سورة المطففين، الآيات: ٢٢ - ٢٦.

(٢) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾(١).

إن الفضل الذي ادّخره الإسلام للاحقين والمتأخرين بالإضافة إلى اقتدائهم بالسلف وعلى رأسهم النبي ﷺ وأهل قرْنه، يكون بمثل العمل على إحياء السنن في أزمان الغربة، بحيث يكون للمحتسب الصابر على ذلك كأجر عشرات من السلف كما في الأحاديث، ولعل المقصود بذلك الأجر الفردي دون شرف الصحبة.

ويكون أيضًا بمجاهدة النفس على الطاعة لله تعالى والرسول ﷺ، وبهذه المجاهدة الجادة يلحق من فاتته المرافقة وشرف الصحبة في الدنيا بالمرافقة والصحبة في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا ﴾(٢)، ومعنى ذلك أنه يعيش في الدنيا ما يتصوره من خلال النقل والرواية أنه أخلاق وسلوكيات الصحبة، يعيشه في دعوته ومجتمعه وأسرته لكي يكافأ على ذلك في الآخرة، برفقةٍ وصحبةٍ حقيقيةٍ تكون تنعمًا لا تكاليف.

كما أن مثل هذا الحديث الذي نحن بصدده والذي يجعل عمرة في رمضان تعدل حجة مع النبي ﷺ، مثل هذا الحديث يحلّق بأصحاب الهمم فيرفعهم من واقعهم إلى مستوى صحبة النبي ﷺ خلال أداء العبادة، ويجتاز بهم حواجز الزمان.

وكم يترك ذلك من إيجابيات تربوية ودعوية واجتماعية ونفسية، عند تلك الأفواج المشتاقة، التي تؤم البيت العتيق في رمضان للعمرة من كل أقطار المعمورة، وذلك في كل عام، وكم يترك ذلك من إيجابيات في محيطاتهم الواسعة. هذا بالإضافة إلى ما يتركه المُجِدُّون المُحْيون للسنة عند الغربة، وما يتركه أهل المجاهدة الجادة في الطاعة، وما يتركه المقتدون بشكل عام.

---

(١) سورة الجمعة، الآيات: ٢ - ٤.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ٦٩ - ٧٠.

الحديث رقم (١٢٨١)

١٢٨١- وعنه: أنَّ امرأة قالت: يَا رسول الله، إنَّ فَرِيضَةَ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ فِي الحَجِّ، أدْرَكَتْ أَبِي شَيْخًا كَبِيرًا، لاَ يَثْبُتُ عَلَى الرَّاحِلَةِ أفَأَحُجُّ عَنْهُ؟ قَالَ: ((نَعَمْ)) متفقٌ عَلَيْهِ[١].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

لا يثبت على راحلة: لا يستطيع أن يستقر على الراحلة لضعفه الناشىء عن كبر سنّه[٢]، والراحلة: الناقة أو البعير الصالح للسفر[٣].

الشرح الأدبي

نلاحظ أن هذا الاستيضاح جاء علي لسان امرأة، وهذا يوحي بأن النساء أكثر عاطفة، وإشفاقا، وحنوا علي الوالدين – في غالب الأحوال – ويوحي هذا الموقف أيضا أن هذه المرأة ذات دين، وتحب لوالدها الخير كل الخير، وترجو أن يتم أبوها أركان دينه، إلا أن الشيخوخة تمنعه من أن يقوم بأعمال الحج، أو السفر إلي تلك الأماكن الطاهرة. والاستفهام في قولها: " أفأحج عنه ؟ " حقيقي تريد منه فهم المسألة، ومعرفة الحكم الذي يترتب عليه عملها، والفعل المضارع: " أحج " يشير إلى أن هذه الصورة ليست خاصة بتلك المرأة فقط، ولكنها مستمرة في كل حالة مشابهة لها، ومتجددة، وهذا يوحي بأن الله تعالي يريد بعباده الخير، ويفتح لهم باب الحسنات لمن للوالدين بعد موتهما ببر أبنائهم، وهو ما يرغب بدوره في إنجاب الذرية الصالحة، وتعطي فرصة لمن قصَّر في حق والديه أن يبرهما بما نقصها من الفرائض، أو الإكثار عليهما من الصدقة. والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥١٣) واللفظ له، ومسلم (١٣٣٤/٤٠٧).

(٢) المعجم الوسيط في (ث ب ت)، وفتح الباري ٨٢/٤.

(٣) الوسيط في (ر ح ل).

فقه الحديث

يشير الحديثان إلى عدة أحكام منها:

١ - حكم الحج عن الغير: في الحديث دليل على أنه يجزئ الحج عن المكلف، إذا كان ميئوسًا منه القدرة على الحج بنفسه، مثل الشيخوخة فإنه ميئوس زوالها، وأما إذا كان عدم القدرة لأجل مرض أو جنون يرجى برؤهما فلا يصح[١].

٢ - أن الاستطاعة تكون بالغير كما تكون بالنفس[٢].

٣ - حكم سماع صوت المرأة: يدل الحديث على جواز سماع كلام المرأة وسماع صوتها للأجانب عند الضرورة كالاستفتاء عن العلم، والترافع في الحكم والمعاملة[٣].

٤ - إحرام المرأة: يدل الحديث على أن إحرام المرأة يكون في وجهها، فيجوز لها كشفه في الإحرام[٤].

٥ - في الحديث جواز النيابة في السؤال عن العلم حتى من المرأة عن الرجل[٥].

٦ - حكم العمرة: ذهب جمهور الفقهاء (الحنفية في ظاهر الرواية، والمالكية، والشافعية في مقابل الأظهر، والحنابلة في رواية، وابن مسعود، وأبو ثور) إلى القول بأن العمرة سنة مؤكدة[٦]. واستدلوا على ذلك بما روي عن طلحة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول "الحج جهاد والعمرة تطوع". ولأنه نسك غير مؤقت فلم يكن واجبًا كالطواف[٧].

---

(١) سبل السلام ٢/٢١٣، فتح الباري ٤/٨٥، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، تحقيق: عبدالوهاب عبداللطيف ٣/٣٦٥، نيل الأوطار ٤/٢٨٠.

(٢) مغني المحتاج ٢/٢١٨، فتح الباري ٤/٨٥.

(٣) فتح الباري ٤/٨٦.

(٤) الجوهرة النيرة ١/١٥٢، مغني المحتاج ٢/٢٣٦-٢٣٧، فتح الباري ٤/٨٦.

(٥) فتح الباري ٤/٨٦.

(٦) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني الحنفي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢/٢٢٦، حاشية رد المحتار ٢/٤٧٢، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢/٨٣، مواهب الجليل ٢/٤٦٦، ٤٦٧، مغني المحتاج ٢/٢٠٧، المغني ٣/٨٦، سبل السلام ٢/٢١٠، نيل الأوطار ٤/٢٨١.

(٧) المغني ٣/٨٩.

وذهب الشافعية في الأظهر، والحنفية في قول، والحنابلة في رواية، وعمر، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، والحسن، وابن سيرين، والشعبي، والثوري، وإسحاق إلى القول بأن العمرة واجبة[١]. واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ﴾[٢] ومقتضى الأمر للوجوب ثم عطفها على الحج، والأصل التساوي بين المعطوف والمعطوف عليه[٣].

ويناقش هذا بأن الآية لا دلالة فيها على فرضية العمرة لأنها قرئت برفع العمرة "والعُمْرَةُ لله". وأنه كلام تام بنفسه غير معطوف على الأمر بالحج، أخبر أن العمرة لله ردًا لزعم الكفرة لأنهم كانوا يجعلون العمرة للأصنام على ما كانت عبادتهم من الإشراك، وأما على قراءة العامة فلا حجة فيها أيضًا لأن فيها أمرًا بإتمام العمرة وإتمام الشيء يكون بعد الشروع فيه[٤].

والراجح هو رأي جمهور الفقهاء القائل بسنية العمرة.

المضامين الدعوية[٥]

أولاً: من واجبات المدعو: السؤال والاستفسار عن الأحكام الشرعية.

ثانيًا: من خصائص الدعوة: السماحة واليسر والبعد عن المشقة.

ثالثًا: من فقه الداعية: التيسير على المدعوين ومراعاة أحوالهم.

رابعًا: من أساليب الدعوة: السؤال والجواب والأمر.

---

(١) مغني المحتاج ٢/٢٠٧، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني الحنفي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢/٢٢٦، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق، فخر الدين الزيلعي ٢/٨٣، المغني ٣/٨٩، سبل السلام ٢/٣١٠، نيل الأوطار ٤/٢٨١.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٦.

(٣) المغني ٣/٨٩.

(٤) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني الحنفي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢/٢٢٦.

(٥) تم دمج المضامين الدعوية لهذا الحديث – ١٢٨١ – مع المضامين الدعوية للحديث رقم ١٢٨٢.

خامسًا: من آداب المدعو: مراعاة حقوق الوالدين والعناية بهما.

أولاً - من واجبات المدعو: السؤال والاستفسار عن الأحكام الشرعية:

حيث جاء في الحديث: (أدركت أبي شيخًا كبيرا لا يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟)، ومما لا شك فيه أن من أهم واجبات المدعو السؤال والاستفسار عن الأحكام الشرعية التي يجهلها حتى لا يقع في محظور شرعي وقد أمر الله تعالى بالسؤال، فقال سبحانه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[١]، قال السعدي: "وهذه الآية وإن كانت في سبب خاص بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين من أهل الذكر، وهم أهل العلم فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه"[٢].

وقد استنكر النبي ﷺ على من ترك السؤال ففي قصة المجروح الذي اغتسل فمات، قال عن الذين أفتوه من غير أن يسألوا: ((قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ ألاَّ سَأَلُوا إذْ لَمْ يَعْلَمُوا فإنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ))[٣].

ولما كان الحج أحد أركان الإسلام وفرائضه كما هو معلوم، وجب السؤال عنه وعن أحكامه وما يتعلق به لأهميته، قال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾[٤]: "هذه آية وجوب الحج عند الجمهور، وقد وردت الأحاديث المتعددة بأنه أحد أركان الإسلام ودعائمه وقواعده، وأجمع المسلمون على ذلك إجماعًا ضروريًا، وإنما يجب على المكلف في العمرة مرة واحدة بالنص والإجماع".

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبدالرحمن السعدي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن معلا اللويحق ص ٤٦٨.

(٣) أخرجه أبو داود ٣٣٦، وحسنه الألباني، (صحيح سنن أبي داود ٣٢٥).

(٤) سورة آل عمران، آية: ٩٧.

ثم قال ابن كثير: "وقد روى أبو بكر الإسماعيلي الحافظ من حديث أبي عمرو الأوزاعي، حدثني إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر، حدثني عبدالرحمن بن غنم أنه سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ((من أطاق الحج فلم يحج، فسواء عليه يهوديًا مات أو نصرانيًا)) وهذا إسناد صحيح إلى عمر رضي الله عنه"[١].

وقال القرطبي عقب قول عمر ونحوه: "هذا خرج مخرج التغليظ؛ ولهذا قال علماؤنا [يعني المالكية]: تضمّنت الآية أن من مات ولم يحج وهو قادر فالوعيد يتوجّه عليه، ولا يجزىء أن يحجّ عنه غيره، لأن حج الغير لو أسقط عنه الفرض لسقط عنه الوعيد. والله أعلم"[٢]. ولهذا يرى المالكية أنه لا يصح الحج عن الميت إلا إذا أوصى.

قال ابن تيمية: "إن الاستسلام لله لا يتم إلا بالإقرار بما لَهُ على عباده من حج البيت"[٣].

وفي الحديث الذي نتكلم عليه عبّرت المرأة في سؤالها للنبي صلى الله عليه وسلم عن الحج بأنه فريضة الله على عباده، وأن هذا الأمر بدهي مقرر في العقيدة. وسؤالها يدل على أنها تعتقد أن هذه الفريضة تلزم أباها رغم ضعفه فبحثت له عن طريقة للأداء.

وقد ذكر النووي في شرح صحيح مسلم فوائد مأخوذة من هذا الحديث منها: "جواز النيابة في الحج عن العاجز الميئوس منه بهرم (أي كبر في السن) أو زمانة (أي مرض مزمن) أو موت. ومنها جواز حج المرأة عن الرجل. ومنها بر الوالدين بالقيام بمصالحهما من قضاء دين وخدمة ونفقة وحج عنهما وغير ذلك. ومنها وجوب الحج على من هو عاجز بنفسه مستطيع بغيره كولده، ثم ذكر النووي أن مذهب الجمهور ومنهم الشافعي جواز الحج عن المعضوب، وهو من حصلت به الزمانة أو الهرم أو نحوهما، وأنه على مذهبهم كذلك يجوز الحج عن الميت، عن فرضه ونذره سواء أوصى به أم لا ويجزى عنه، وأن مذهب الشافعي وغيره أن ذلك واجب في تَرِكَتِه"[٤].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٥٠٨/١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ١٣٦/٤.

(٣) مجموع الفتاوى ٩٣/٣.

(٤) شرح صحيح مسلم ٩٨/٩.

قال ابن حجر: "واستدل الكوفيون بعموم الحديث على جواز حج من لم يحج نيابة عن غيره، وخالفهم الجمهور فخصوه بمن حج عن نفسه - أي أنه لا يحج أحد عن أحد حتى يكون قد سبق له الحج عن نفسه من قبل - واستدلوا بما في السنن وصحيح ابن خزيمة وغيره من حديث ابن عباس أيضًا أن النبي ﷺ رأى رجلاً يلبي عن شبرمة فقال: (أحججت عن نفسك؟ فقال: لا. قال: هذه عن نفسك ثم احجج عن شبرمة)"[١].

وقال ابن حجر: "وادعى آخرون أن ذلك خاص بالابن يحج عن أبيه، ولا يخفى أنه جمود. ثم قال: واتفق من أجاز النيابة في الحج على أنها لا تجزئ في الفرض إلا عن موت أو عضب (زمانة أو هرم)، فلا يدخل المريض، لأنه يرجى برؤه، ولا المجنون، لأنه ترجى إفاقته، ولا المحبوس لأنه يرجى خلاصه، ولا الفقير لأنه يمكن استغناؤه، والله أعلم"[٢].

وهذه الأحكام وغيُرها مأخوذة من النصوص كما هو معلوم، ومنها الحديث الذي نتكلم عليه، وقد أشار ابن حجر إلى طرق الحديث وقال: "والذي يظهر لي من مجموع هذه الطرق أن السائل رجل وكانت ابنته معه، فسألت أيضًا - هل تحج عن أبيها، وتعني جدها - والمسؤول عنه أبو الرجل وأمه جميعًا - لأن في بعض الروايات ذكر الأم..."[٣].

وكأن النووي وغيره أخذ من الحديث: جواز حج المرأة بلا محرم كما هو في شرح صحيح مسلم في الموضع السابق، ولعله يقصد أنها سألت النبي ﷺ أثناء الحج ولم يكن معها محرم، أو أن الرسول ﷺ حين أجاز لها الحج عن جدها لم يُلزمها بالمحرم، ولكن من مجموع الطرق التي جمعها ابن حجر كما مرّ، تبين أن والدها وهو محرم لها كان موجودًا، كما أن سماح الرسول ﷺ لها بالحج عن جدها ليس معناه عدم الإلزام بالمحرم؛ لأن أدلة المحرم مذكورة في نصوص أخرى.

---

(١) فتح الباري ٤/٦٩.

(٢) نفس المرجع السابق ٤/٧٠.

(٣) نفس المرجع السابق ٤/٦٨.

إن المدعو يسأل ويستفسر عن الأحكام الشرعية، لأنه يعلم أنه مطالب بتنفيذها والقيام بها، والإسلام دين القيام بالتكاليف؛ لأن الدنيا لا تستقيم إلا بإصلاح النفوس وتربيتها، ولا يتحمل تبعاتها بحق وصدق إلا من هذبته العبادات، وصقلته الطاعات، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾[١]، ولا يفلح في الآخرة إلا من نهض بتلك التكاليف الشرعية؛ لأن الجنة حفّت بالمكاره كما في الحديث الصحيح.

ومن أجل ذلك فإنه مطبوع في ذهن المسلم بأنه لا بد من أن يؤدي واجباته والفرائض التي عليه، وأي فريضة (عبادة) تتعسر فإن لها بدلاً وعوضًا، حتى لا يفوت على المسلم بركة هذه العبادة وآثارها النافعة له في دنياه وأخراه، فالوضوء والغسل بدلهما التيمم، والصيام عند العجز مقامه الكفارة، والحج والعمرة إذا ثبتا في الذمة يمكن فيهما النيابة وهكذا.

وإذا غفل المسلم عن شيء من ذلك، فإن الدعوة والتذكير والنصيحة من الآخرين، وفي مقدمتهم العلماء لا تنفك عنه مما يجعل المسلم في جاهزية مستمرة والتزام، وهذا يجعل المجتمع المسلم يتميز عن المجتمعات الأخرى، فبعض غير المسلمين مثلاً لا يتذكرون دينهم وتكاليفه المحدودة إلا في يوم الأحد أسبوعيًا، أو في عيد الميلاد سنويًا، أو في يوم السبت.

ولا يوجد دين كالإسلام فيه عبادات يومية وأسبوعية وشهرية وسنوية، وفي رأس العمر، ولذلك فالمجتمع المسلم مجتمع متدين ملتزم، فإذا أضيف إلى ذلك أن دين المجتمع المسلم هو الدين الحق، فقد اجتمعت أسباب الفلاح بذلك للمسلمين من كل جانب. إن الرابطة الأسرية في الأسرة المسلمة تقوم على الدين، ولذلك يتفقد كل فرد في الأسرة الأحوال الدينية لبقية الأفراد، ويقرر موقفه منهم بقدر تدينهم وعدمه أو محاربتهم للدين، وما إذا كان هذا الموقف المفاصلة أو المساعدة. قال تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾[٢].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٥٣.

(٢) سورة المجادلة، آية: ٢٢.

ولذلك لا غرابة، أن يحج المرء في الإسلام ويعتمر عن أبيه أو عن أمه وعن القريب وحتى عن البعيد إذا اقتضى الحال على سبيل المثال لكي يتلافى ما عنده من عجز، وبذلك يتكامل الكيان المسلم، وتكون الرابطة الاجتماعية بشعبها الحياتية المتنوعة هي الرابطة الدينية القوية، مما يجعل المسلمين جميعًا تنظيمًا واحدًا وحزبًا واحدًا، ولذلك كان ختام الآية السابقة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١).

ثانيًا - من خصائص الدعوة: السماحة واليسر والبعد عن المشقة:

ويتضح هذا من الحديث: (أدركت أبي شيخًا كبيرًا لا يثبت على الراحلة أفأحج عنه؟ قال: نعم)، وقوله: (إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن، قال: حج عن أبيك واعتمر)، ولا شك أن هذا يدل على سماحة الإسلام ويسره في العبادات، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٖ﴾(٢)، قال ابن كثير: "أي: ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء فشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجًا، ومخرجًا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: من حرج، أي: من ضيق ومظاهر ذلك ما ورد من الرخص والتخفيفات في سائر الفروض والواجبات"(٣).

واليسر والبعد عن المشقة من أبرز خصائص الشريعة الإسلامية "إن من يتتبع أحكام الشريعة الإسلامية والنصوص التي استنبطت منها فسوف يجد لا محالة أن هذه الأحكام قد روعي فيها التخفيف والتيسير على العباد، وأن مظاهر رفع الحرج واضحة جليلة في ابتدائها ودوامها، وأنه في كثير من الحالات يتضمن النص حكمين أحدهما: للحالة العادية، وثانيهما: لظرف طارئ يقتضي التخفيف من الحكم الأول لما يترتب على تطبيقه

---

(١) الآية السابقة نفسها.

(٢) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة ٤٥٥/٥.

من حرج شديد أو مشقة بالغة قد تصل إلى الهلاك، ونطاق السماحة والتيسير في شريعة الإسلام لا يقتصر على شؤون العبادات، وإنما يتسع لكل أحكام الشريعة من معاملات مدنية، وتصرفات شخصية، وعقوبات جزائية وتشريعات قضائية ونحوها"[١].

وفي بيان أن الشريعة تقوم على التيسير ورفع الحرج عن العباد، قال ابن القيم: "وبناء الشريعة على مصالح العباد في المعاش والمعاد، والجهل بهذا غلط عظيم على الشريعة يوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة لا تأتي به، فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم الدلالة وأصدقها وهي نوره الذي به أبصر المبصرون، وهداه الذي به اهتدى المهتدون، وكل خير في الوجود فإنما هو مستفاد منها وحاصل بها، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة"[٢].

ثالثًا – من فقه الداعية: التيسير على المدعوين ومراعاة أحوالهم:

ويتضح هذا من سياق الحديث، ولذا كان من فقه الداعية التيسير على المدعو ورفع الحرج عنه، وبهذا أوصى النبي ﷺ معاذًا وأبا موسى رضي الله عنهما حين بعثهما إلى اليمن فقال لهما: ((وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا))[٣]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ((فإنَّما بُعِثْتم مُيَسِّرِينَ، ولم تُبعثوا مُعَسِّرين))[٤].

---

(١) مظاهر التيسير في التشريع الإسلامي، د. عبدالعزيز محمد عزام ص ٨٠.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم، تحقيق: رائد صبري بن أبي علفة ص ٤.

(٣) أخرجه البخاري ٣٠٣٨، ومسلم ١٧٣٢.

(٤) أخرجه البخاري ٢٢٠، ٦١٢٨.

قال ابن القيم: "جمع الله عز وجل في هذه الشريعة بين كونها حنيفية وكونها سمحة فهي حنيفية في التوحيد سمحة في العمل"(١).

وقال د. يوسف القرضاوي: "ومما أنصح به شباب الدعاة أن يتخلوا عن التشدد والغلو، ويلزموا جانب الاعتدال والتيسير، وخصوصًا مع عموم الناس الذين لا يطيقون ما يطيقه الخواص من أهل الورع والتقوى، ولا بأس بأن يأخذ المسلم في مسألة أو جملة مسائل بالأحوط والأسلم، ولكن إذا ترك دائمًا الأيسر أصبح الدين في النهاية مجموعة أحوطيات لا تمثل إلا الشدة والعسر، والله يريد بعباده السعة واليسر، وإذا جاز للإنسان أن يشدد على نفسه طلبًا للأكمل والأسلم فلا يجوز أن يشدد على جمهور الناس فينفرهم من دين الله من حيث لا يشعر، ولئن كان التيسير مطلوبًا في كل زمن فإنه في زماننا ألزم وأكثر تطلبًا"(٢).

إن النيابة في الحج والعمرة جائزة، وهذا من فضل الله تعالى على الناس، ومن يُسْر هذا الدين، إذْ لم يكلّف الله الناس ما يشق عليهم بأن يفرض عليهم مثلاً أداء الحج والعمرة وهم في حال المرض المزمن، أو الإعاقة الدائمة اللذين يصعب معهما الأداء .

وكذلك كانت النيابة تداركًا لما فات على الميت من الأداء، فيلحق كل من به زمانةٌ أو إعاقة، أو ذهب به الموت بإخوانه الذين منّ الله عليهم بالحج والعمرة بهذه الوسيلة التي تعني فيما تعني التعاون بين المؤمنين، وهو تعاون يشمل أمور الدين والدنيا، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾(٣).

وإذا كانت النيابة جائزة من المسلم عن أخيه المسلم في أداء الحج والعمرة، وهذا ممّا يزيد الترابط بين المسلمين ويقوّي العلاقات، ويعمّق الأخوّة ومكارم الأخلاق، فإن هذه المعاني تكون أعمق وأوثق عندما تجري النيابة بين ذوي الأرحام والقرابات، فتخدم بذلك فريضة صلة الرحم، وهي فريضة أكدّ عليها الكتاب والسنة

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي ١٥٨/١.

(٢) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف ص ٢١٠ - ٢١٢ بتصرف.

(٣) سورة المائدة، آية: ٢.

وتكاثرت فيها النصوص، وإن من أقرب الناس إلى الشخص أبويه، وكما كانا السبب في وجوده، وكانا يتفقدانه صغيرًا في طعامه وشرابه وقيامه ومنامه وصحته ومرضه، وفي نظافته وملابسه، ويحرصان على تربيته، وتعليمه سلوكيات الحياة، ويجتهدان في تعليمه أمور الدين نظريًا وتطبيقيًا حتى ينشأ على الاستقامة، ويهتمان بإنقاذه من النار، فإنه يلزم الولد أن يحرص على أن يردّ لهما شيئًا من الجميل وهيهات . وردّ الجميل من مكارم الأخلاق، فيتفقد أحوال والديه في مختلف حاجاتهما، ويعمل على إسعادهما كما عملا على إسعاده، ومن ذلك أن يساعدهما في أداء واجباتهما الدينية.

وإذا كان شأن المؤمنين في مجتمعهم كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١)، فكيف بشأن المؤمنين في داخل الأسرة الواحدة، ولاسيما في التعامل مع الأبوين.

فإذا عجز أحدهما عن أداء الفريضة المستقرة في الذمة كالحج والعمرة، فلابد أن ينهض الابن أو البنت بعبء المساعدة والنيابة، ومثل ذلك يقال في سائر الفرائض فتكون المساعدة في الوضوء أو في التيمم، أو في التهيئة للصلاة، أو في الكفارة عن الصيام، أو في حساب الأموال وإخراج الزكاة وهذا من صُلْب البر بالوالدين والإحسان إليهما، ولا يتخلف عن ذلك أي مسلم عنده التزام بخلق ودين.

رابعًا - من أساليب الدعوة: السؤال والجواب والأمر:

١ - **السؤال والجواب:** حيث جاء في الحديث: (أفأحج عنه؟ قال: نعم) وأسلوب السؤال والجواب من أساليب الدعوة التي تفتح حوارًا بين الداعية والمدعو، وتفتح مجالاً للمدعو للاستفسار عما يجهل ومن صور استعمال القرآن لأسلوب السؤال والجواب قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى﴾(٢).

---

(١) سورة التوبة، آية: ٧٠.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢٢.

٢- **الأمر:** حيث جاء في الحديث: (حج عن أبيك واعتمر)، وأسلوب الأمر من أساليب الدعوة التي تشعر المدعو بأهمية المأمور به وضرورة تنفيذه، ومن صور استعمال القرآن لأسلوب الأمر قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾(١).

خامسًا - من آداب المدعو: مراعاة حقوق الوالدين والعناية بهما:

إن أعظم حق على العبد هو حق الله تعالى الذي أوجده من عدم، وأنعم عليه بكل النعم، ومن أبرز الحقوق التي تأتي بعد ذلك حق الوالدين؛ لأنهما السبب في وجود الشخص بتقدير الله تبارك وتعالى، وهما اللذان تولّيا تربيته صغيرًا حتى بلغ سنّ الاعتماد على نفسه، وما أصعب التربية وأثقلها! وما أتعب تنشئة الأطفال ورعايتهم وحمايتهم! وبسبب ذلك قضى إلهنا الحكيم سبحانه بالإحسان إليهما بعد أن قضى بإفراده بالعبادة، وأمر بالمبالغة في حسن الخلق معهما، قال جل وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾(٢).

وطاعة الوالدين في المعروف طاعة لله تعالى، بل إن رضا الله في رضاهما وسخطه في سخطهما.

وعقوق الوالدين من الكبائر ومن أقبح الذنوب، ولذلك كان من الذنوب التي يعجل الله عقوبتها في الدنيا.

ومراعاة الوالدين والتلطف لهما واجبة حتى لو كانا كافرين، ولا طاعة للوالدين إذا أمرا بمعصية أو أمرا بالكفر، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾(٣).

---

(١) سورة البقرة، آية: ٤٣.

(٢) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٣ - ٢٤.

(٣) سورة لقمان، آية: ١٥.

ولاشك أن من الإحسان إلى الوالدين مساعدتهما في حال الضعف في أداء الفرائض، ومن ذلك الحج، وكذلك العمرة على قول من يرى فرضيتها فيقوم الولد ذكرًا أو أنثى بتلك المساعدة أثناء أداء المناسك، أو ينوب عن الوالد إذا كان يعجز عن الانتقال والسفر.

وإن أولى الناس بحسن التعامل والبر والخلُق هم الأقربون، وفي مقدمتهم الأب وأبوه وإن علا، الأم وإن علتْ، وهذه المرأة من هذا المنطلق سألت الرسول ﷺ مبينةً استعدادها للنيابة عن أبيها -الجد- في أداء فريضة الحج إن كان ذلك مأذونًا به شرعًا.

والنيابة في العبادة هي عبادة، والأصل أنه لا ينظر إليها نظرة مادية، سواء أكانت نيابة عن أحد الأقارب أم عن شخص ليس من الأقارب.

والنائب يأخذ ما يكفيه من النفقة دون نظر إلى الكسب، قال ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى: "والمنصوص عن أحمد أنه قال: لا أعرف في السلف من كان يعمل هذا - أي يتكسّب بالحج - وعدّه بدعةً وكرهه ... ولم يكره إلا الإجارة والجعالة - يعني أن يقصد ذلك في الحج - ثم يقول ابن تيمية: قلت: حقيقة الأمر في ذلك أن الحاج يستحب له ذلك إذا كان مقصوده أحد شيئين: الإحسان على المحجوج عنه، أو نفس الحج لنفسه ... فإذا كان مقصود الحاج قضاء الدين الواجب عن الشخص، فهذا محسن إليه، والله يحب المحسنين فيكون مستحبًا، وهذا غالبًا إنما يكون لسبب يبعثه على الإحسان إليه، مثل رحم بينهما، أو مودّةٍ أو صداقة أو إحسان له عليه يجزيه به، ويأخذ من المال ما يستعين به على أداء الحج عنه، وعلامة ذلك أن يطلب مقدار كفاية حجه، ولهذا جوّزنا نفقة الحج بلا نزاع، وكذلك لو وصّى -الشخص- بحجة مستحبة، وأحب إيصال ثوابها إليه.

والموضع الثاني: إذا كان الرجل مؤثرًا أن يحج محبةً للحج وشوقًا إلى المشاعر وهو عاجز فيستعين بالمال ... وهذا قد يعطي المال ليحج به لا عن أحد كما يعطي المجاهد المال ليغزو به، فلا شبهة فيه، فيكون لهذا أجر الحج ببدنه، ولهذا أجر الحج بماله كما في الجهاد، فإنه من جهّز غازيًا فقد غزا ... فهاتان صورتان مستحبتان وهما

الجائزتان من أن يأخذ نفقة الحج ويرد الفضل - يعني ويُرد الزيادة - أما إذا كان قصده الاكتساب بذلك ... فهذه صورة الإجارة والجعالة، والصواب أن هذا لا يستحب، وإن قيل بجوازه، لأن العمل المعمول للدنيا ليس بعمل صالح في نفسه إذا لم يقصد به إلا المال، فيكون من نوع المباحات، ومن أراد الدنيا بعمل الآخرة فليس له في الآخرة من خلاق"(١).

إن الشخص في المجتمع المسلم يتربى منذ نعومة أظفاره على احترام الكبير وتوقيره وتقديمه، وتوفير حاجاته، ومعاونته فيما لا يستطيع القيام به، ويتم ذلك برحابة صدر وسرور، وينظر الشباب وصغار السن إلى ذلك أنه جزء من واجبهم، وبعضٌ من أدبهم وثقافتهم، وقاعدة هامة من قواعد أخلاقهم قال ﷺ: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا وَيوقِّرْ كَبِيرَنَا))(٢).

ونجد في حديث: (إن فريضة الله على عباده في الحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا) نموذجًا لاهتمام الابن بأبيه، والبنت بجدّها؛ إذْ إنه من مجموع الروايات التي جَمعها ابن حجر كما مرّ ظهر أن الابن سأل عن إمكان نيابته عن أبيه في الحج لم ينس كذلك أن يسأل عن نيابته عن أمه .

إنها تربيةُ الإسلام وصياغته للنفوس، وتكوينه للأخلاق، وتنسيقه للأقوال حتى تكون معبّرة تعبيرًا صادقًا عن الأفعال، فالرجل وابنته ما سألاَ إلا للتطبيق .

وأين هذا من حضارة الغرب الزائفة التي لا أخلاق لها، وليس لها خَلاقٌ من القيم، لا يكاد الأب عندهم يطمئن إلى أن الابن الذي ينتسب إليه هو ابنه، والابن لا يعرف حق أبيه ولا حق أمه، بل قد يشك في الأبوّة، ولذلك يذهب كلٌّ منهم في سبيله ووراء حاجاته ومتطلباته في الحياة، أسرٌ مفكّكة وقِيَمٌ غائبة، إذا كبر الأب في السن، أو كبرت الأم فليس أمامهما سوى ملجأ العجزة؛ لا يجدان من يتحنّن عليهما أو يعطف على شيخوختهما أو يؤنسهما، أو يتلمّس رغباتهما، فضْلاً عن أن يهتم

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٦/١٤.

(٢) أخرجه الترمذي ١٩١٩، وصححه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٥٦٥).

بواجباتهما الدينية كما هو الحال عندنا في الإسلام، وكما يدل على ذلك الحديث الوارد هنا بالذات .

إن مجتمعًا تتفكّك فيه الأسرة لَحَرِيٌّ أن يتفكّك كيانه، ولذلك كان للعلاقات الأسرية المتينة لدى المسلمين آثارٌ بنائية اجتماعية متينة على مستوى المجتمع ثم على مستوى الأمة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: ((مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ، تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى))[2].

وإذا كان الغرب يدعو إلى حضارته تشدُّقًا ودعاوى، فإن المسلمين يدعون بالواقع قبل النظرية، وبالأفعال والأقوال معًا ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً﴾[3].

---

(١) سورة الحجرات، آية: ١٠.

(٢) أخرجه البخاري ٦٠١١، ومسلم ٢٥٨٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٣٨.

الحديث رقم (١٢٨٢)

١٢٨٢- وعن لقيط بن عامر رضي الله عنه: أنَّه أتى النبيَّ ﷺ، فَقَالَ: إنَّ أَبي شَيْخٌ كَبيرٌ، لاَ يَسْتَطِيعُ الحَجَّ، وَلاَ العُمْرَةَ، وَلاَ الظَّعْنَ؟ قَالَ: ((**حُجَّ عَنْ أبيكَ وَاعْتَمِرْ**)) رواه أَبُو داود والترمذيُّ[1]، وقال: (حديث حسن صحيح).

ترجمة الراوي:

لقيط بن عامر: هو لقيط بن عامر بن المنتفق بن عامر العامري أبو رَزين العقيلي، أوفده قومه إلى رسول الله ﷺ.

وهناك خلاف بين المحدثين: هو لقيط بن صَبِرة المتقدم ذكره في الحديث (١٢٥١) أم غيره؟

ذهب جماعة منهم -كالبخاري- إلى أنه لقيط بن صَبِرة. وذهب آخرون -منهم مسلم بن الحجاج- إلى أنه غيره.

ورجح الحافظ ابن حجر أنهما اثنان وقال: لأن لقيط بن عامر معروف بكنيته ولقيط بن صبرة لم يذكر كنيته... والرواة عن أبي رزين جماعة ولقيط بن صبرة لا يعرف له راوٍ إلا ابنه عاصم. وإنما قوّى كونهما واحدًا عند من جزم به؛ لأنه وقع في صفة كل واحد منهما أنه وافد بني المنتفق، وليس بواضح، لأنه يحتمل أنه يكون كلٌّ منهما كان رأسًا ا. هـ.

وكان رجلاً يحسن السؤال، فقد رُوي أن النبي ﷺ كان يكره المسائل، فإذا سأله أبو رزين أعجبته مسألته[2].

---

(١) أخرجه أبو داود (١٨١٠)، والترمذي (٩٣٠) واللفظ له. وصحّحه ابن خُزيمة (٣٠٤٠)، وابن حبان (الإحسان ٣٩٩١)، وقال الحاكم (٤٨١/١): هذا حديثٌ صحيحٌ على شرط الشيخين ولم يخرجاه. قال البيهقي في معرفة السنن والآثار (٥٧/٧، ف٩٢٨٥): وقد روينا عن أحمد بن حنبل أنه قال: لا أعلم في إيجاب العمرة حديثًا أجود من هذا، ولا أصحَّ منه.

(٢) الطبقات (٥١٨/٥)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، ابن عبدالبر ٦٣٩، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، ابن الأثير، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود (٤٩١/٤) والإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١١٤٣، ١١٤٤، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال، الذهبي، تحقيق: غنيم عباس غنيم، ومجدي السيد أمين (١٨٢/٦)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني (٤٧٩/٢).

ومن ذلك ما ورد في الحديث أنه سأل النبي ﷺ عن كثير من أمور الغيب ويوم القيامة. وفيه أن الرسول ﷺ شهد لقومه بالتقوى، فقال رسول الله ﷺ: إن هذين لعمر إلهك من أتقى الناس في الأولى والآخرة. فقال له كعب بن الخُدَارية أحد بني بكر بن كلاب: من هم يا رسول الله؟ قال: بنو المنتفق أهل ذلك[1].

غريب الألفاظ:

الظعن: السفر[2].

الشرح الأدبي

لقد أكد الراوي أن أباه لا يستطيع الحج، ولا العمرة، ولا الظعن (أي السفر) في المقدمة التي ساقها بين يدي سؤاله (إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن؟) ووصفه بالكبر بعد الشيخوخة مبالغة في إظهار ضعفه الذي يترتب عليه عجزه عن فريضة الحج، وسنة العمرة، فجاءه الرد من معلم الناس الخير ﷺ فقال له: "حج عن أبيك، واعتمر". والفعلان "حج.. اعتمر" يفتحان الباب على مصراعيه لبر الوالدين، وتدارك ما فاتهما من الصالحات، ويتأكد هذا الأمر إذا كان "الابن" قادرا علي ذلك، وقدم "الحج" علي "العمرة"، لأنه الفريضة المتممة للركن الخامس من أركان الإسلام، ويستطيع أن يؤدي العمرة مع الحج عن طريق التمتع، أو القران، ولا يستطيع أن يحج أثناء أداء العمرة في غير أشهر الحج. والإضافة في قوله: "أبيك" تذكره بتلك الرابطة الإنسانية بين الولد والوالد، والتي تستلزم الإشفاق عليهما من التقصير في الفرائض فيسعى إلى إتمام النقص.

المضامين الدعوية[3]

---

(١) أخرجه عبدالله بن أحمد في زوائده على المسند (١٦٢٠٦/٢٦) وقال الحافظ في الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور طه محمد الزيتي ١١٢١: سنده حسن.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ظ ع ن).

(٣) تم دمجها مع مضامين الحديث السابق.

الحديث رقم (١٢٨٣)

١٢٨٣- وعن السائب بن يزيد رضي الله عنه ، قَالَ: حُجَّ بي مَعَ رسولِ اللهِ ﷺ -(في حَجةِ الوَدَاعِ)[١]- وَأنَا ابنُ سَبعِ سِنِينَ. رواه البخاريُّ[٢].

ترجمة الراوي:

السائب بن يزيد: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١٣٨).

الشرح الأدبي

بدأ الراوي حديثه بالفعل الماضي " حج بي" للتدليل علي تحقق وقوع ذلك، ولعله يشعر بالسرور، والرضا، لكونه قد حج مع الرسول ﷺ أثناء "حجة الوداع "، وذكر المعية يوحي بالاعتزاز، والفخر، وقد بيَّن سنوات عمره في ذلك الوقت فقال: " وأنا ابن سبع سنين " وهذا يوحي بتعويد النشء علي العبادة، والطاعة، وحب الخالق المشرع -عز وجل - لتسهل عليهم الطاعات عندما يكبرون، لأن الأبناء ينشئون على ما ربَّاهم عليه آباؤهم من الطاعة أو المعصية، والجار والمجرور في قوله: "حج بي" يوحي بأنه حج بمصاحبة والديه أثناء الحج، وكان عمره -في ذلك الوقت- سبع سنوات. والله أعلم.

فقه الحديث

يشير الحديثان إلى عدة أحكام منها:

١ - جواز حج الصبي قبل البلوغ أو مباشرته النسك إذا كان مميزًا وذلك ليتمرن على العبادة فيألفها بعد البلوغ[٣].

٢ - حكم حج الصبي: ذهب الحنفية والمالكية، والشافعية، والحنابلة وجماهير أهل العلم إلى أن حج الصبي صحيح منعقد يثاب عليه وإن كان لا يجزيه عن حجة

(١) هذا التفسير من المؤلف، وليس من لفظ الحديث.

(٢) برقم (١٨٥٨).

(٣) دليل الفالحين ٤/ ٦٤.

الإسلام بل يقع تطوعًا[١].

وشذ البعض فقال إذا حج الصبي أجزأه ذلك عن حجة الإسلام[٢].

والراجح هو رأي جمهور الفقهاء وذلك لأن الصبي غير مكلف بل إن ابن بطال نقل إجماع أئمة الفتوى على سقوط الفرض عن الصبي حتى يبلغ وإذا حج كان حجه تطوعًا[٣].

٣ - لا خلاف بين الفقهاء في جواز الحج بالصبيان[٤].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: تدريب الأبناء على أداء العبادات.

ثانيًا: من تاريخ الدعوة: حجة الوداع.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: أهمية العناية بتربية الأطفال ومسؤولية الآباء:

أولاً - من موضوعات الدعوة: تدريب الأبناء على أداء العبادات:

حيث جاء في الحديث: (حُجَّ بي مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع وأنا ابن سبع سنين)، قال ابن حجر: "قال ابن بطال: أجمع أئمة الفتوى على سقوط الفرض عن الصبي حتى يبلغ إلا أنه إذا حج كان له تطوعًا عند الجمهور، وقال أبو حنيفة: لا يلزمه شيء إنما يحج به على جهة التدريب"[٥].

وقال ابن علان: "إحجاج الصبي قبل البلوغ أو مباشرته النسك، أي: إذا كان

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني الحنفي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١٢٠/٢، حاشية رد المحتار ٤٥٩/٢، حاشية الدسوقي ٣/٢ وما بعدها، مغني المحتاج ٢٠٩/٢-٢١٠، المغني ٨٦/٣-٨٧، شرح صحيح مسلم ٩٩/٩، فتح الباري ٨٧/٤، سبل السلام ٣١٢/٢، نيل الأوطار ٢٩٤/٤.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٠٠/٩، فتح الباري ٨٧/٤، نيل الأوطار ٢٩٤/٤، سبل السلام ٣١٢/٢.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٠٠/٩، فتح الباري ٨٧/٤، نيل الأوطار ٢٩٤/٤.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٠٠/٩.

(٥) فتح الباري ٨٥/٤.

مميزًا، وذلك ليتمرن على العبادة فيألفها بعد البلوغ"[١].

إن من رحمة الله بهذه الأمة أن رفع التكاليف عن أطفالها حتى سن البلوغ كي نتمكن من تدريبهم وتعويدهم على الطاعة والعبادة.

"إن إتاحة الفرصة للأطفال كي يؤدوا شعيرة الحج فيه تربية لهم وتعويد على هذه العبادة وغيرها من العبادات الأخرى، وهو عمل تربوي توجيهي؛ الأطفال في حاجة ماسة له؛ فلا بد من العناية به والدعوة إليه والحث عليه كي يحصل لهم الخير والبركة، من جرّاء قيامهم ومشاركتهم الكبار في هذه العبادة الجليلة الركن الخامس من أركان الإسلام، ولا شك أن هذا يربطهم بها ويشبوا على حبها والقيام بها عندما يبلغون سن التكليف"[٢].

ويستفيد الصبي من عمله الصالح عند الله تبارك وتعالى، ومن العمل الصالح حجّ الصبي.

قال ابن تيمية: "وإذا دخل أطفال المؤمنين الجنة فأرواحهم وأرواح غيرهم من المؤمنين في الجنة، وإن كانت درجاتهم متفاضلة.

والصغار يتفاضلون بتفاضل آبائهم، وتفاضل أعمالهم إذا كانت لهم أعمال، فإن إبراهيم بن النبي ﷺ ليس هو كغيره، والأطفال الصغار يثابون على ما يفعلونه من الحسنات، وإن كان القلم مرفوعًا عنهم في السيئات كما ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ رفعت إليه امرأة صبيا، فقالت: ألهذا حجٌّ؟ قال: ((نَعَمْ. وَلَكِ أَجْرٌ)) [٣].

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ: ((مُرُوهُمْ بِالصَّلَاةِ لِسَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ))[٤]، وكانوا يُصَوِّمون الصغار يوم عاشوراء وغيره؛ فالصبي يثاب على صلاته وصومه وحجّه وغير ذلك

---

(١) دليل الفالحين ص ١٣٨٨.

(٢) كيف ندعو الأطفال، د. حمدان الهجاري، ط/١ دون ذكر دار النشر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ص ١٨٥.

(٣) أخرجه مسلم ١٣٣٦.

(٤) أخرجه أبو داود ٤٩٥، وقال الألباني: حسن صحيح، (صحيح سنن أبي داود ٤٦٦).

من أعماله، ويَفْضُل بذلك على من لم يعمل كعمله، وهذا غير ما يُفعَل به إكرامًا لأبويه، ويتميز بذلك على من ليس كذلك"[١].

وتعليم الأطفال العبادة من الصغر له فوائده الكثيرة، ومنها الفوائد العقدية، ومن ذلك أن يتعلم الطفل ويعتقد أنه بحفاظه على العبادة وحرصه عليها فإنه يلقى من الله جزاءً مناسبًا لحفاظه، وهو أن الله يحفظه حفظًا شاملاً في دينه ودنياه وأولاه وأخراه.

وقد علَّم النبي ﷺ ابن عباس رضي الله عنهما وهو لا زال غلامًا كلمات كانت تحمل فيما تحمل هذا المعنى، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يومًا فقال: ((يَا غُلاَمُ! إِنـي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ إِحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، إِحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ...))[٢].

وكل هذه الكلمات تربط العبادة بالعقيدة، وتبيّن بجلاء للصبي وغيره عائدة صلاته وصيامه وحجه وسائر طاعاته في واقعه الملموس فيزداد إيمانه ويقينه وتترسخ عقيدته، ويحرص على المحافظة على الأعمال الصالحة.

إن هذا الحديث وما في معناه يدل على أن الأعمال الصالحة مقبولة من الصبيان، وقد أمر الرسول ﷺ في أكثر من حديث بتمرينهم على أداء تلك الأعمال، كالصلاة والصيام، وكان الصحابة رضي الله عنهم يقومون بذلك، فينشأ الصبيان على تطبيق الأحكام ويعتادونها. وقد صار ذلك منهجًا تربويًا للمسلمين مع أولادهم في كل زمان ومكان.

والصبيان عمومًا أقرب إلى الفطرة والصلاح؛ لأن كل مولود يولد على الفطرة؛ فإذا أضاف الصبي إلى هذه الفطرة أعمالاً صالحة كان ذلك أدعى لتثبيت الفطرة لديه وتعميق الصلاح، ولا تتخلف هذه الفطرة في أولاد الكافرين إذا زالت عنهم سيطرة الآباء والأمهات ماداموا في سن الصبا.

قال ابن القيم: "بعد ذكر أقوال المذاهب في المسألة -أي سبايا الكفار من الأطفال-: "والصحيح في هذه المسألة أنه يُحكم بإسلامه -أي الطفل- تبعًا لسابيه

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٧٨/٤.

(٢) أخرجه أحمد ٢٩٣/١، رقم ٢٦٦٩، وقال محققو المسند: إسناده قوي، ٤١٠/٤، وأخرجه الترمذي ٢٥١٦، وصححه الألباني: (صحيح سنن الترمذي ٢٠٤٣).

-يعني الذي أسره وسبَاهُ من المسلمين في الحرب- مطلقًا، وهذا مذهب الأوزاعي، وهو إحدى الروايات عن أحمد؛ لأنه مولود على الفطرة، وإنما حُكِم بكفره تبعًا لأبويه لثبوت ولايتهما عليه، فإذا انقطعت ولايتهما بالسباء عمل مقتضى الفطرة عمله، إذْ لم يبق له معارض فكيف يحكم بكفره، وقد زال حكم الأبوية عنه؟ وهو لم يَصِفِ الكفر ولم يعرفْه، وإنما كان كافرًا تبعًا لهما، والمتبوع قد زال حكم استتباعه إذْ لم يبق له تصرّفٌ في نفسه ولا ولاية على ولده، ومن هاهنا قال الإمام أحمد ومَنْ تبعه: إنه يُحكَم بإسلامه بموت الأبوين؛ إذْ عَدَمُهُما أقوى في زوال التبعية من سابيه منفردًا عنهما أو معهما أو مع أحدهما"[١].

وقد كان العثمانيون يربُّون أولاد النصارى الذين يأخذونهم من أوروبا تربية إسلامية جهادية، وأسّسوا منهم فرقة الإنكشارية الشهيرة التي كان شعار أفرادها: إما غازٍ وإمّا شهيد.

وفي الحديث الذي نحن بصدده حج هذا الصحابي وهو صبي، وذلك يعطينا صورة عمّا سبق الإشارة إليه من تربية الصبيان على أداء العبادات ولو كانت شاقة.

إن حج الصبي إنما هو على سبيل التمرين واكتساب الأجر ولا يُسقط عنه الفريضة إذا صار بالغًا مستطيعًا. قال ابن حجر: "قال ابن بطال: أجمع أئمة الفتوى على سقوط الفرض عن الصبي حتى يبلغ إلا إنه إذا حُجَّ به كان تطوعًا عند الجمهور، وقال أبو حنيفة: لا يصح إحرامه، ولا يلزمه شيء بفعل شيء من محظورات الإحرام، وإنما يُحَج به على جهة التدريب، وشذ بعضهم فقال: إذا حج الصبي أجزأه ذلك عن حجة الإسلام لظاهر قوله: (نعم) في جواب: ألهذا حجٌّ؟ - يعني في الحديث الآخر - .

وقال الطحاوي - وهو حنفي - : لا حجة فيه لذلك، بل فيه حجة على من زعم أنه لا حجّ له؛ لأن ابن عباس راوي الحديث قال: (أيما غلام حج به أهله ثم بلغ فعليه حجة أخرى) ثم ساقه بإسناد صحيح"[٢].

---

(١) أحكام أهل الذمة ٢/٩٢٦.

(٢) فتح الباري ٤/٧١.

والصبي الذي يُحج به قد يكون مميزًا وقد يكون غير مميز. قال ابن تيمية في شرح العمدة: "فإن كان الصبي مميّزًا أحرم بنفسه بإذن الولي وفعل أفعال الحج واجتنب محظوراته؛ فإن أحرم عنه الولي، أو فعل عنه شيئًا مثل الرمي وغيره لم يصح؛ لأن هذا دخول في العبادة فلم يصح من المميز دون قصده كالصوم والصلاة.فإن أحرم بدون إذن الولي ففيه وجهان:

أحدهما: لا يصح، قاله أبو الخطاب وجماعة معه، قال متأخروا أصحابنا - يعني الحنابلة - : وهو أصحّ؛ لأنه عقْدٌ يجب عليه به حق أي مال فلم يملك بدون إذن الولي كالنكاح.

وإن كان الصبي غير مميز عقدَ الإحرام له وليُّه سواء كان - يعني الولي - مُحْرِمًا أو حلالاً كما يعقد له النكاح وغيره من العقود، ويلبي عنه فيقول: لبيك عن فلان، وإن لم يُسمِّه جاز، ويطوف به ويسعى، ويُحْضِره المواقف ويرمي عنه، ويجنِّبُه كل ما يجتنبه المحرم، وإذا لم يمكنه الرمي استحب أن يوضع الحصى في يده، ثم يؤخذ فيُرمى عنه، وإن وضعه في يده ورمى بها وجعلها كالآلة جاز"(١).

وذكر ابن تيمية قبل ذلك: "أن حج الصبي صحيح - أي من حيث الأجر - سواء كان مميّزًا أو طفلاً بحيث ينعقد إحرامه، ويلزمه ما يلزم البالغ من فعل واجبات الحج وترك محظوراته"(٢).

ثانيًا - من تاريخ الدعوة: حجة الوداع:

حيث جاء في الحديث: (حج بي مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع)، ولا شك أن حجة الوداع تاريخ هام في الدعوة الإسلامية، قال ابن عبدالبر: "قال ابن إسحاق: ولما دخل على رسول الله ﷺ ذو القعدة، من سنة عشر تجهز للحج وأمر الناس بالجهاز له وخرج لخمس ليال بقين من ذي القعدة، وأحسن حديث في الحج، وأتمه حديث جابر رضي الله عنه وفيه أن رسول الله ﷺ مكث بالمدينة تسع سنين ثم أُذِّن في الناس أن

---

(١) شرح العمدة في بيان مناسك الحج والعمرة ٢/٢٧٨ - ٢٨٠.

(٢) نفس المرجع السابق ٢/٢٧٦.

رسول الله ﷺ حاجٌّ العام، فنزل بالمدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يَأتمَّ برسول الله ﷺ ويفعل ما يفعل"[١].

وقال ابن القيم: "لا خلاف أنه ﷺ لم يحج بعد هجرته إلى المدينة سوى حجة واحدة، وهي حجة الوداع، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر، ولما نزل فرض الحج بادر رسول الله ﷺ إلى الحج من غير تأخير فإن فرض الحج تأخر سنة تسع أو عشر ولما عزم رسول الله ﷺ على الحج أعلم الناس أنه حاج، فتجهزوا للخروج معه، وسمع ذلك مَنْ حَوْلَ المدينة فقدموا يريدون الحج مع رسول الله ﷺ، ووافاه في الطريق خلائق لا يحصون، فكانوا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله مد البصر، وخرج من المدينة نهارًا بعد الظهر لست بقين من ذي القعدة، بعد أن صلى الظهر بها أربعًا، وخطبهم قبل ذلك خطبة علّمهم فيها الإحرام وواجباته وسننه"[٢].

وقال د. أبو شهبة: "وتسمى هذه الحجة حجة الوداع لأن النبي ﷺ ودّع فيها المسلمين، وحجة الإسلام لأنه لم يحج بعد الهجرة غيرها، وحجة البلاغ لأن النبي ﷺ بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وعملاً"[٣].

ثالثًا – من موضوعات الدعوة: أهمية العناية بتربية الأطفال ومسؤولية الآباء:

إن من الأخلاق التي يغرسها الإسلام في نفوس أتباعه توقير الكبير والاهتمام بحاجاته وأداء واجباته لاسيما إذا كان قريبًا، وبوجه أخصّ إذا كان أبًا أو أمًّا، ولذلك رأينا كيف أن رجلاً وابنته اهتمّا بسؤال النبي ﷺ عن الحج عن الأب الذي صار شيخًا كبيرًا وكذلك سأل الرجل عن الأمّ، وذلك من أجل إبراء ذمة الأبوين، وبذل الجهد في التعاون معهما في ذلك.

وبالمثل نجد أن من خُلُق أهل الإسلام العناية بالناشئة، والتركيز في الاهتمام بهم وحسن التعامل معهم وإشعارهم بأهمية وجودهم، وأهمية أن يكونوا أفرادًا صالحين

---

(١) الدرر في اختصار المغازي والسير ص ٢٦٠.

(٢) زاد المعاد ٢/١٠١ – ١٠٢ بتصرف.

(٣) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة ٢/٥٦٧.

يمارسون العبادات، وشئون الحياة، بقدر طاقتهم كما يمارسها الكبار تشبّهًا بهم.

وعندما يشعر الصغير أن أقاربه الكبار يعتنون به ويهتمون، ويقدمون له المساعدة والعون، ولا يبخلون عليه بالجهد والمال حتى يصير فردًا مماثلاً لسائر أفراد الأسرة ثم لسائر أفراد المجتمع المسلم في القيام بالعبادة ، وأداء المسئوليات، فإنه يحتفظ في ذاكرته لأقاربه وأوليائه بهذا الجميل، ويشعر بنُبلهم وإحسانهم، فيغرس ذلك في نفسه الخلق الجميل، ويؤسس النبل والإحسان، ويصبح إسداءُ الجميل وتقديمُ المعروف وصناعةُ الفضل نحو الآخرين من سلوكيات هذا الناشئ ؛ تأثُّرًا بما تلَقّاه، وتأسيًا بما استفاده ورآه.

وفي مقدمة من يجني ثمار هذه الأخلاق أبوه وأمه وأسرته وأقاربه، ثم تتوسع الدائرة لتشمل كل من يتعامل معه.

فإذا كان كل فرد يتخلّق بهذه الأخلاق كأثر عن أداء العبادات من بداية الحياة وامتدادًا في سائر مراحلها ؛ فإن السعة والشمول والتركيز وإصلاح الواقع ستكون سماتٍ عامة ومظاهر لا تخطئها العين.

قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان مِنَّا   على ما كان عوّده أبوهُ [(١)]

إن الصبي ينشأ حاملاً الصفات الوراثية لأصوله وآبائه، وكلما تغذّى ونما، وحصل الاعتناء بجسده، ومن ذلك النصيب الكافي من الرياضة، فإن الصفات الجيدة الكامنة في الصبي تبرز إلى حيز الوجود، وتتنامى مع الصبي حتى تظهر في أفضل ظهور وأكمله عند كِبرَه واكتمال أشدّه.

ومثل ذلك يقال في الصفات الفطرية التي أودعها الله في الإنسان، فإن التربية الإسلامية التي يتلقّاها الصبي منذ نعومة أظفاره تكون تغذيةً وتنميةً وتعزيزًا لتلك الصفات الفطرية، وإعدادًا لهذا الصبي لكي يصير مسلمًا ملتزمًا بتكاليف الإسلام،

---

(١) أبو العلاء المعري، العسر العباسي، قافية الهاء، البحر: الوافد.

وعضوًا نافعًا في المجتمع صاحبَ نفس سويَّة منسجمة مع الفطرة وداعيةً إلى ذلك فيمن حوله بسلوكه وأقواله.

عندما يحج الصبي فإنه يتلقى جرعات واسعة من التربية المعزّزة للفطرة، فاختلاطه بالناس وهم يمارسون العبادة والذكر وهو يمارسها معهم يترك أثرًا عظيمًا في نفس الصبي لا ينساه أبدًا، وحتى إذا لم يكن مميّزًا فإن هذا الأثر وبركته يبقى في لا شعوره ويمدُّه بالهدى والاستقامة والالتزام، فإذا خرج إلى دنيا الابتلاء كان عوده صلبا من التربية المكثفة السابقة.

كما أن بركة المشاعر المقدسة مع بركة البلد الحرام، وبركة الشهر الحرام بالانضمام إلى بركة أداء عبادة الحج والعمرة تترك آثارًا مضاعفة للبركة عند هذا الصبي على غرار ما تتركه عند الكبار، بل ربما بصورة أفضل ؛ لأن الصبي لازال صفحة بيضاء لم تتلوث.

ولهذا عاقبته المحمودة عند هذا الصبي في مستقبل رجولته.

وما يكتسبه الصبي من الأجور على أداء العبادة، فإنه يدخل في رصيده الإيجابي وهو في هذا أيضًا أفضل حالاً من الكبار ؛ لأنه بالنسبة للصبي لا توجد سيئات مزاحمةٌ للحسنات، فالصبي مرفوع عنه القلم، وهذه الإيجابية معناها بناءٌ بلا معوقات وإشادة بلا هدْم، وخير بلا شر.

فإذا بلغ الصبي ومضى في زحمة الحياة، كان صاحب ماضٍ مشرق وإمكانات رافدة وكنوز محفوظة، فمضى إلى الأمام بإذن الله بيسر وتوفيق وسلام. ومجتمع هذا شأن ناشئيه لاشك أنه كذلك بإذن الله مجتمع خير وسلام.

إن الصبي في الإسلام يتربى من صغره على الصلاة فيؤمر بها لسبع سنوات، ويضرب عليها لعشر، كما يتربى على النوم وحده والانفراد في المضجع، كما ورد بذلك الحديث، ويتربى أيضًا على الصوم وإن كان عبادة فيها مشقة، إلا أنه لابدّ له من التمرين حتى لا يصعب عليه عند البلوغ، وقد ذكرت الربيّع بنت معوّذ كما في الحديث المتفق عليه أنهم كانوا يصوّمون صبيانهم يوم عاشوراء عندما كان مفروضًا، ويجعلون

لأحدهم اللعبة من العهن -الصوف- مداراةً للصبي حتى يحين الإفطار.

وكذلك يتربى الصبي عند الاستطاعة على الحج، وهو عبادة أشق من عبادة الصوم؛ لأن في الحج سفرًا واغترابًا، واختلافًا في الجو والمناخ وغير ذلك.

وكل ذلك نافعٌ للصبي منافع عديدة، والتدريب واحدة من هذه المنافع، والأجر واحدة من هذه المنافع، وبركة العبادة وبركة الزمان وبركة المكان من المنافع.

وفي ذلك كله تهيئة للصغير ليكون فردًا متكامل الصفات، فلا يبلغ مبلغ الرجال إلا وهو ملتزم في نفسه فعالٌ في المجتمع داعية إلى الخير، ذو روحٍ سامية ونفس سويّة.

وهذا هو الإعداد للبشر الإعداد الدقيق الفريد بحيث يمر هذا الإعداد على كل فردٍ دون استثناء، مما يجعل الإسلام يتميز بذلك على سائر المناهج، لأن تلك المناهج مهما اهتمّت وركّزتْ فلا تصل في اهتمامها وتركيزها إلى المتابعة اليومية والشهرية والسنوية للفرد، وفي شئونه الشخصية بجانب الشئون العامة، وهذا ما يجعل المجتمع المسلم نموذجيًا مثاليًا، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[(١)].

وإن التركيز في الإسلام على صناعة الإنسان، أعظم أثرًا وأعمق وأتم وأبقى من التركيز على صناعة الماديات، لأن إتقان صناعة الإنسان هي الأساس لكل صناعات الحياة قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[(٢)].

والأنبياء عليهم السلام كانت هذه دعوتهم، وجاءت الحضارات النموذجية نتيجة لذلك، وأما غير الأنبياء وأتباعهم فكانت نتائج دعواتهم حضارات جوفاء شكلية تهتم بالإنسان كحيوان ناطق، وليس كمخلوق سامق كرّمه الله قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[(٣)]. وشتان بين المنهجين والنتيجتين في الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١١٠.

(٢) سورة الرعد، آية: ١١.

(٣) سورة محمد، آية: ١٢.

الحديث رقم (١٢٨٤)

١٢٨٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ لَقِيَ رَكْبًا بالرَّوْحَاءِ، فَقَالَ: ((مَنِ القَوْمُ؟)) قالوا: المسلِمُونَ. قالوا: مَنْ أنْتَ؟ قَالَ: ((رسولُ اللهِ)). فَرَفَعَتِ امْرَأةٌ[١] صَبيًّا، فَقَالَتْ: ألِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: ((نَعَمْ، وَلَكِ أجْرٌ)) رواه مسلم[٢].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

الرّوحاء: موضع في طريق الجُحفة بين المدينة المنورة وبدر[٣].

الشرح الأدبي

استفهام الرسول ﷺ (مَنِ القَوْمُ ؟) استفهام على حقيقته من باب التعارف الممهد لإعانة المسلم، وقضاء حاجته، ودعوة غير المسلم للإسلام، وهو من أساليب الدعوة التي يجب علينا أن نتعلمها بالتعرف إلى غير المسلمين، وتعريفهم بديننا، وشرح تعاليمه بما يحقق نشر الإسلام، وخدمة الدين ، ولو أن كل مسلم دعا واحدا من غير المسلمين لتغير، وجه الأرض، والاستفهام في قول المرأة المتوجهة إلي الحج، عندما رفعت صبيها: " ألهذا حج ؟ " يراد منه التعلم، والاسترشاد. وفي قوله: " نعم ولك أجر " إيجاز بالحذف تقديره: " هذا الصبي له حج ولك أجر " واللام في قوله: " ولك أجر " تدل علي الملكية لهذا الأجر، فلا ينازعها فيه أحد. وتنكير كلمة: " أجر " يدل علي تعظيم ذلك الثواب، وكأنه قال: " ولك أجر كبير لا يعلمه إلا الله علي تحملك مشقة اصطحابه، والقيام علي أمره مع ما يخص الحج من مناسك، وعبادات، والإجابة بـ " نعم " يراد منها الترغيب، والإقبال علي العبادة. والله أعلم.

المضامين الدعوية[٤]

---

(١) عند مسلم زيادة: (إليه).

(٢) برقم (١٣٣٦/٤٠٩)، وتقدم برقم (١٧٩).

(٣) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل في (ر و ح).

(٤) تقدم ذكرها في شرح الحديث رقم ١٧٩.

الحديث رقم (١٢٨٥)

١٢٨٥ - عن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ حَجَّ عَلَى رَحْلٍ وَكانت زَامِلَتهُ. رواه البخاري[1].

ترجمة الراوي:

أنس بن مالك: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (٤).

غريب الألفاظ:

رَحْل: ما يوضع على ظهر البعير للركوب[2].

زاملته: الزاملة: البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع، والمراد أنه لم تكن معه زاملة تحمل طعامه ومتاعه، بل كان ذلك محمولاً معه على راحلته وكانت هي الراحلة والزاملة[3].

الشرح الأدبي

مشاركة الراوي في الأحداث التي يرويها بمعنى أن يكون طرفا في الحوار، أو مشاركا في بعض أحداثه، أو رأى الواقعة ورواها يعطي الخبر توكيداً قوياً؛ لأن الرؤية من أقوى طرق العلم مما يحقق الدقة في النقل، وراوي الحديث هو أنس رضي الله عنه هو الذي رأي ذلك، وشاهده أثناء حج المصطفي ﷺ والفعل الماضي المسند إلي الضمير العائد علي النبي الكريم في قوله: " حج علي رحل " يدل علي تحقق ذلك من المصطفي، و أنه قد أتم أركان الإسلام وفرائضه، كما يوحي بأنه يطبق ما ينادي به علي نفسه، وأنه أول المقربين، ورائد المتقين، وإمام العارفين بالله العابدين له. وقوله: " وكانت زاملته"، والزاملة: البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع، من الزمل، وهو الحمل، والمراد أنه لم

---

(١) برقم (١٥١٧). أورده المنذري في ترغيبه (١٦٩٠) بتمامه، ولم يورد المؤلف قوله: (حجَّ أنس على رحل، ولم يكن شحيحًا).

(٢) الوسيط في (ر ح ل).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (ز م ل)، وفتح الباري ٤٤٥/٣.

تكن معه زاملة تحمل طعامه، ومتاعه بل كان ذلك محمولاً معه على راحلته، وكانت هي الراحلة، والزاملة مما يشير إلى ضيق الحال من ناحية، ومن ناحية أخرى يشير إلى أن الرسول الكريم ﷺ قد أخذ بالأسباب، على قدر المتاح له، وحمل معه الزاد الذي يكفيه أثناء رحلة الحج من المدينة المنورة إلي مكة المكرمة - ذهابا وإيابا - فلم يتواكل، ولم يكن عالة علي غيره صلوات الله، وسلامه عليه.

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: حجة الوداع.

ثانيًا: من موضوعات الدعوة: تواضع النبي ﷺ وزهده في الدنيا.

ثالثًا: من موضوعات الدعوة: هدي النبي ﷺ في أداء العبادات والحج.

أولاً - من موضوعات الدعوة: حجة الوداع:

حيث جاء في الحديث: (أن رسول الله ﷺ حج على رحل)، ومما لا شك فيه أن حجة الوداع من الموضوعات الهامة للدعوة الإسلامية.

يقول د. البوطي: "إن لحجة رسول الله ﷺ هذه معنى جليلاً يتعلق بالدعوة الإسلامية يتعلق بحياته ﷺ ويتعلق بالمنهج العام للنظام الإسلامي، لقد تعلم المسلمون من رسول الله ﷺ صلاتهم وصيامهم وزكاتهم وعامة ما يتعلق بهم من عبادات وواجبات، وبقى أن يعلمهم مناسكهم، وكيفية أداء شعائر الحج بعد أن طويت تلك التقاليد الجاهلية المتوارثة أيام موسم الحج، من تَصْدِيَة وصفير وعرى أثناء الطواف، وقضى عليها مع القضاء على الأوثان وتطهير بيت الله الحرام منها، وإن الدعوة إلى الحج لبيت الله الحرام ستظل قائمة إلى يوم القيامة فهي دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام بأمر من ربه سبحانه وتعالى"[1].

وقال الشيخ محمد الغزالي: "أعلن رسول الله ﷺ نيته بالحج، وأشعر الناس بذلك حتى يصحبه من شاء، وأقبلت وفود الله من كل صوب تيمم وجهها شطر البيت العتيق،

---

(١) فقه السيرة النبوية ص ٤٧٩ - ٤٨٠.

وهي تعلم أن رسول الله ﷺ هو في هذا العام أمير حجهم ومعلمهم مناسكهم. وفي يوم عرفة من هذه الحجة العظيمة نزل قوله تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾[(١)]، وعندما سمعها أبو بكر بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان. وكأنه استشعر وفاة رسول الله ﷺ. والحق أن مشاعر التوديع للحياة والأحياء كانت تتضح بها بعض العبارات التي ترد على لسان الرسول ﷺ في خطبه بالموسم"[(٢)].

ثانيًا – من موضوعات الدعوة: تواضع النبي ﷺ وزهده في الدنيا:

حيث جاء في الحديث: (أن رسول الله ﷺ حج على رحل وكانت زاملته)، قال ابن حجر: "والزاملة: البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع والمراد أنه لم تكن معه زاملة تحمل طعامه ومتاعه بل كان ذلك محمولاً معه على راحلته، وكانت هي الراحلة والزاملة وقد فعل أنس رضي الله عنه ذلك فحج على رحل وفعله ذلك تواضعًا واتباعًا لا عن قلة وبخل" [(٣)]، وقد مدح رسول الله ﷺ التواضع وحثّ عليه فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللّهُ)) [(٤)]، ومن تواضعه ﷺ ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: إن كان النبيُّ ﷺ ليخالِطُنا حتى يقولَ لأخ لي صغير: ((يا أبا عُمَير، ما فَعلَ النغَير؟))[(٥)].

وعن عائشة رضي الله عنها وقد سئلت عما كان النبي ﷺ يصنع في أهله قالت: ((كان في مِهنةِ أهله، فإذا حضَرَتِ الصلاةُ قام إلى الصلاة))[(٦)].

ومن تواضعه ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: ((كانتِ الأمَةُ من إماء أهلِ المدينة لَتَأخُذُ

---

(١) سورة المائدة، آية: ٣.

(٢) فقه السيرة ص ٤٥٤.

(٣) فتح الباري ٤٤٥/٣ – ٤٤٦.

(٤) أخرجه مسلم ٢٥٨٨.

(٥) أخرجه البخاري ٦١٢٩، ومسلم ٢١٥.

(٦) أخرجه البخاري ٦٠٣٩.

بيد رسولِ اللّه ﷺ فتنطَلقُ به حيث شاءت))[١].

إن التواضع من الأخلاق الهامة التي ينبغي أن تسود بين الناس اقتداء برسول اللّه ﷺ، "والمقصود بالتواضع أن يمشي المؤمن بين الناس هونًا ،وأن يخفض جناحه لمن يلقاه، وأن يرضى أن يأكل ما حضر من طعام، ويلبس ما تيسر له من اللباس، ويمتزج على من يلتقي من البشر دون كبر أو أن يدخله بقية عجب أو تساوره نظرة من استعلاء، والتواضع يجعل الداعية محبوبًا في قومه وبيئته ذا أثر فعال بينهم، وقوامه عليهم صفة التواضع وخفض الجناح فالكبر يشكل حاجزًا وجدارًا بين الداعية والناس، بل ويجعل الداعية معزولاً عن مجتمعه غير مألوف ممن حوله"[٢].

لقد ورد هذا الحديث الذي معنا في البخاري بلفظ حجّ أنس على رحْل ولم يكن شحيحًا وحدّث أن رسول اللّه ﷺ حجَّ على رحل، وكانت زاملته.

والمقصود أن أنس بن مالك رضي الله عنه إنما اقتصد في الحج اقتداءً بالرسول ﷺ الذي اقتصد من أجل أن تتخلق الأمة بالقصد، والتواضع، فعن عبداللّه بن سرجس المزني أن النبي ﷺ قال: ((التُّؤَدَةُ وَالاقْتِصَادُ وَالسَّمْتُ الْحَسَنُ جُزْءٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ))[٣].

وأنس بن مالك رضي الله عنه كان كثير المال والولد، فقد دعا له الرسول ﷺ بذلك كما في الحديث الذي عند مسلم وغيره، ولكنه صمّم على التخلّق بالبساطة في الحج تشبُّهًا بالرسول - عليه الصلاة والسلام - قال ابن حجر: "فوقع عند مسلم في آخر هذا الحديث ... قال أنس: فواللّه إن مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي ليتعادُّون على نحو المائة اليوم ... وتقدم في كتاب الطب عند البخاري قول أنس: أخبرتني ابنتي أمينة أنه دُفن من صُلْبي إلى يوم مقدم الحَجّاج البصرة مائة وعشرون... وأخرج الترمذي عن أبي العالية في ذكْر أنس: وكان له بستان يأتي في كل سنة الفاكهة مرتين، وكان فيه

---

(١) أخرجه البخاري ٦٠٧٢.

(٢) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار ص ٥٩، ٦٠.

(٣) أخرجه الترمذي ٢٠١٠، وحسنه الألباني، (صحيح سنن الترمذي ١٦٣٥).

ريحان يجيء منه ريح المسك. ورجاله ثقات"(١).

والحج يحدث فيه ازدحام في البلاد المقدسة بسبب وفود الحجاج من كل فج عميق ومعهم وسائل نقلهم ومتاعهم، وبسبب هذا الزحام قد تحدث حوادث وكوارث على الحجاج، ولذلك سنّ - عليه الصلاة والسلام - التقلُّل والتخفُّف من الأمتعة وحاجات السفر وكذلك من الدواب، فكيف الحال في أيامنا هذه، وقد زادت أعداد الناس وتوسعوا في الكماليات ولم تعد وسائل النقل الدواب، وإنما السيارات التي تحتل المساحات؟! وأكثر الناس رفاهَيّةً وتوسُّعًا هم أهل المسئولية وأرباب الغنى.. فهلاّ اقتدى هؤلاء بسيد البشرية وإمام المسئولين ﷺ ،وكذلك بما فعل صاحبه المقرّب منه كثير المال والرجال، وبما سار عليه الصالحون على مدى القرون؟ إن المتخفّفين في الدنيا، يكون سلوكهم وتعاملهم، بل وحياتهم خفيفةً على الناس، كما أن حسابهم يوم الحساب يكون خفيفًا يسيرًا، وسبقهم إلى الجنان سبْقًا ميسورًا، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

ومما يدل على تواضع النبي ﷺ ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ لقي ركبًا بالروحاء فقال: ((مَنِ الْقَوْمُ؟)) قَالُوا: الْمُسْلِمُونَ. فَقَالُوا: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: ((رَسُولُ اللّهِ)) فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: ((نَعَمْ. وَلَكِ أَجْرٌ))"(٢).

وفي هذا الحديث دلالة على خلُق التواضع عند رسول الله ﷺ، وقد كان ﷺ قمة في مكارم الأخلاق؛ وإنما بُعث لتتميمها، ومن تواضعه ﷺ أنه سأل الركْب بنفسه فقال: (من القوم؟) ولم يُوكِل السؤال إلى غيره، كما هي عادة الكبراء والوجهاء.

ومما يدلّ كذلك على بساطته وتواضعه - عليه الصلاة والسلام - أنه لم يكن وضْعه مُلفتًا للنظر، بل كان كآحاد الناس، فهو وإن كان الوقت ليلاً كما ذكر بعض شراح الحديث، أو كان الركب ممن أسلموا في بلدهم ولم يعرفوا الرسول ﷺ بعد، فإن سؤال الركْب للرسول عليه الصلاة والسلام: من أنت؟ دليل

(١) فتح الباري ١١/١٤٥.

(٢) أخرجه مسلم ١٣٣٦.

واضح على بساطة المنظر والهيئة، وحتى لو كان الوقت ليلاً؛ فإن مظهر الأبّهة والفخامة والخدم والحشم الذي يحيط به الكبراء أنفسهم لا يخفى، وفي هذه الحالة إذا تم توجيه السؤال فسوف يكون إلى أحد المحيطين، ولن يتمكن من يسأل من اللقاء المباشر بالشخص الكبير.

والتقاء الركب مباشرة بالرسول -عليه الصلاة والسلام- دون موانع وسؤاله لهم ثم سؤالهم له رغم أنه سيد البشر، ولا يمكن أن يرقى أحد من البشر إلى رتبته يبين بوضوح القيمة الأخلاقية العظيمة المستفادة من ذلك.

وأسعد الناس من جعل مثل هذا الخلق نصب عينيه اقتداءً بسيد البشرية - عليه الصلاة والسلام - وإن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم كما ورد في الحديث.

وذووا الوجاهات، وأصحاب المناصب وأهل المُلْك والسؤدد جديرون بالتواضع كما تواضع إمام الأنبياء ﷺ، وبالتواضع يحفظون مكانتهم عند الله، وكذلك عند الناس ومن تواضع لله رفعه.

وإن من أعظم ما خلّد سِيرَ الخلفاء الراشدين وأئمة الهدى أمثال: عمر بن عبد العزيز هو التواضع، لأن أفراد الرعية والبسطاء كانوا يصِلون إلى الخليفة بسهولة، ويكلّمونه بيسر، وينزلون به حاجاتهم فيقضيها، وأما الرعاة المتباعدون، والمسئولون المتعالون، فبالإضافة إلى إثم التعالي، فإنهم يتحمّلون إثم التباعد عن الرعية، لأنهم مسئولون عن قضاء حاجاتهم، والإمام راع ومسئول عن رعيته، وما يظنونه من المظاهر أنه يضفي عليهم حزْمًا ومهابةً فإنما يعود عليهم بنقيض قصدهم في الدنيا والآخرة فيمقتهم الله ويمقتهم الناس.

وأما زهده ﷺ في متاع الدنيا، فإن الناس يميلون إلى الدنيا لما فيها من متاع عاجل وزينة وزخارف، مع أنها منقضية زائلة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1]. ويؤثرون الدنيا مع أنها دار ممرّ وليست دار مقرّ، ومع أنهم فيها

(١) سورة الكهف، آية: ٧.

غرباء، ووطنهم الدائم الآخرة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾[1].

ويترتب على إيثار الدنيا ومتاعها وزخارفها نظرة خاطئة وجهود ضائعة، ويدخل الناس من أجل ذلك في تكالبٍ وتهالكٍ وصراعاتٍ، وينسون الاستعداد للمصير الذي ينتظرهم، والمستقبل الذي سوف يفاجئهم. ولذلك كان تصحيح هذه النظرة من أهم الأمور، وكان ذلك من أهم مهمّات الأنبياء، وقد جاء التوجيه للنبي ﷺ وهو قدوة الأمة بغضّ البصر عن الدنيا وأبنائها المفتونين بها تربيةً له - عليه الصلاة والسلام - ولأمته من بعده، وذلك لأن النظر للدنيا يورث الإعجاب، والإعجاب يورث الانسياب في الفتنة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾[2]، ولم يقف الأمر عند التوجيه بغضّ البصر عن زينة الحياة الدنيا، وإنما بالموقف الحازم الحاسم من تسلّل متاع الدنيا إلى البيت والأسرة، وضرورة الحرص على حياة الكفاف النموذجية حتى تتفرغ الطاقات والاهتمامات للمستقبل الحقيقي قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[3].

ولما ضَمِن - عليه الصلاة والسلام - نفسه وأسرته من الاغترار بالدنيا صار قدوة بالقول والفعل، ومربيًا بالمنطق والواقع، وداعية بالنظرية والسلوك.

وربّى فعلاً الجيل الأول جيل الصحابة على ذلك، فكانت غايتهم رضوان الله والعمل للآخرة، ولم تكن الدنيا أكثر من وسيلة يأخذون منها الميسور، ثم تتابعت الأجيال، ومثلُها الأعلى ذلك، وانبنى السلوك الاجتماعي في مجتمع المسلمين على هذا الأساس، وإن وُجد الدخَن والمخالفات، إلا أن المثل الأعلى استمر سافرًا ظاهرًا.

---

(١) سورة الأعلى، الآيتان: ١٦ - ١٧.

(٢) سورة طه، آية: ١٣١.

(٣) سورة الأحزاب، الآيتان: ٢٨ - ٢٩.

وما كان حجّ الرسول ﷺ على رحل، وكانت زاملته، إلا إحدى مفردات ذلك السلوك اليومي الزاهر الذي اعتمده -عليه الصلاة والسلام- مسلكًا ثابتًا لا يفرّط فيه ولا يحيد عنه، ولم يجد -عليه الصلاة والسلام- صعوبة في توطين نفسه على ذلك ولا مشقة، لأن الهمّة العالية تتجاوز السفاسف وتتخطى المعوقات، وحينها لا يستغرب المطلّع على الحديث الصحيح الذي يذكر أن رسول الله ﷺ كانت تمرّ عليه ثلاثة أَهِلَّة في شهرين، وما يوقد في بيته نار، ويكتفي مع أسرته بالأسودين التمر والماء، إضافةً إلى اللبن وقد وجد الكثيرون في أمته من ينظر إلى هذه القمة السامقة ويبذل جهوده في محاولة الاقتراب منها، وهؤلاء الذين هيأهم الله لتحقيق المنجزات التي هي أشبه بالمعجزات ففتحوا الشرق والغرب، وحملوا منهج الإسلام ولواءه، بعضهم غزا بالسيف والأخلاق، وبعضهم غزا بالأخلاق فقط، ولمّا لم تكن الدنيا مشروعهم فقد احتلوا قلوب العالمين، وصارت الأمم المفتوحة تحبهم حبًّا يكاد أن يقترب من التقديس، وصاروا أمثلة حية للأسوة والقدوة وصار يتكرر لهم أشباه وأمثال في سائر الأجيال.

ثالثًا- من موضوعات الدعوة: هدي النبي ﷺ في أداء العبادات والحج:

الرسول ﷺ بشر مثل سائر البشر إلا أن الله تعالى اختاره لكي يوحي إليه بالدين، ورغم هذا الاختيار والاصطفاء ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾[1]، فإنه مكلَّف كسائر البشر يؤدي الفرائض ويقوم بالواجبات، ويترك المنهيات، يدعو إلى الله ويتحمل الأذى ويجاهد في سبيله ويتلقى الإصابات والابتلاءات، ولذلك ورد في الحديث القدسي الذي عند مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: ((أَلاَ إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي، وقال: إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لأَبْتَلِيَكَ وَأَبْتَلِيَ بِكَ))[2]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾[3]، وهنالك من

(١) سورة الكهف، آية: ١١٠.

(٢) أخرجه مسلم ٢٨٦٥.

(٣) سورة المزمل، آية: ٥.

الناس من يظن أنه لو نال مرتبة دنيوية كالملك ونحوه أن التكاليف تنحاز إلى غيره وتتخفف عنه، وهو ظنٌّ يجانبه الصواب، بل كلما ازدادت مرتبة الشخص ازدادت مسئوليته، وهذا الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن ينأى بنفسه عن المشقات بل كان يبادر في حين قد ينأى غيره حتى قال الله في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾(١)، وهنالك أيضًا من يظن أنه إذا بلغ في العبادة مرتبة، فإنه تخفّ عنه التكاليف أو قد تلغى كما يزعم بعض الصوفية، وهو كذلك أكذوبة لا أساس لها، فالرسول - عليه الصلاة والسلام - كان أبلغ الناس عبادة، وقد قال الله له: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾(٢).

كما أنه كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، كما في الحديث عند مسلم، وأمره الله بمواصلة هذا السير في العبادة، حتى يأتيه اليقين وهو الموت فقال سبحانه: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾(٣).

وحياته شاهدة على ذلك فلم يتوقف عن الاجتهاد في العبادة إلى أن مات عليه الصلاة والسلام.

وفي الحديث الذي نحن بصدده أدى - عليه الصلاة والسلام - عبادة الحج - وهي عبادة فيها مشقة - كأحسن ما يكون الأداء، أداءً نموذجيًا لأنه قدوة العالمين، وقال كما في الحديث الذي عند مسلم: ((لِتَأْخُذُوا عَني مَنَاسِكَكُمْ، فَإِني لاَ أَدْرِي لَعَلي لاَ أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هذِهِ))(٤). وكان نموذجيًا - عليه الصلاة والسلام - في بساطته حين حجّ مع عامة الناس ببساطةِ عامةِ الناس، فلم يكن معه شخصيًّا - عليه الصلاة والسلام - سوى راحلته عليها يركب، وعليها يحمل متاعه وطعامه، مع أن بإمكانه - عليه

(١) سورة التوبة، آية: ١٢٠.

(٢) سورة الشرح، الآيتان: ٧ - ٨.

(٣) سورة الحجر، آية: ٩٦.

(٤) أخرجه مسلم ١٢٩٧.

الصلاة والسلام - أن يضيف راحلة أخرى، أو أكثر بل يمكنه أن يكون له موكب، ولكنها القدوة والمثال جعلته - عليه الصلاة والسلام - كما يحرص على أداء العبادة لأنه مكلّف كسائر الناس، يحرص كذلك على كيفية الأداء، وأن يكون أداءً يسيرًا بسيطًا بعيدًا عن الشكليات والمظهريات.

وفي هذا الحديث بيان أن الرسول ﷺ اكتفى براحلة واحدة كانت هي التي وضع عليها رحْله فركب عليها للسفر ووضع عليها نفسها متاعه وزاده فكانت هي أيضًا زاملته.

والراحلة وتوابعها مما يدخل في الاستطاعة، قال ابن تيمية في شرح العمدة: "وإنما تعتبر الراحلة في حق من بينه وبين مكة مسافة القصر... فأما القريب والمكي ونحوهما ممن يقدر على المشي فيلزمه ذلك كما يلزمه المشي على الجمعة والعيد؛ فإن كان زَمِنًا - مصابًا بمرض مزمن - لا يقدر على المشي لم يلزمه أن يحج حبْوًا. وأما الزاد فيعتبر في حق القريب والبعيد... لأنه لابد منه. وهناك من قال: لا يعتبر أن يجد الزاد، وإنما يعتبر أن يحصل له ما يأكله ولو بكسْبه، فإن كان متى تشاغل بالحج انقطع كسبه وتعذّر الزاد عليه لم يلزمه الحج.... ويعتبر وجود الزاد والراحلة بالآلة التي تصلح لمثله من الغرائر (الأكياس) وأوعية الماء، وأن يكون الزاد مما يقتاته مثله في هذا الطريق طعامًا وإدامًا، وأن تكون آلات الرحلة مما تصلح لمثله؛ فإن كان مما لا يمكنه الركوب إلا في محمل ونحوه بحيث يخاف السقوط، اعتُبر وجود المحمل، وإن كان يكفيه الرحل والقتب بحيث لا يخشى السقوط أجزأه وجود ذلك سواء كانت عادته السفر في المحامل أو على الأقتاب والزوامل والرحال، وإن كان ممن يستحيي من الركوب على الزوامل لكونه من الأشراف والأغنياء. والأفضل أن يحج على الرحل والزاملة للحديث أن الرسول ﷺ حج كذلك"[1].

وفي زماننا هذا ينظر إلى ما يناسبه في الراحلة والزاد، فالذي لا يستطيع السفر في

(١) شرح العمدة في بيان مناسك الحج والعمرة ٢/١٤٦ - ١٤٧.

البحر لما يلحقه من الغثيان الشديد والمرض، وكذلك إذا كان لا يمكنه السفر على السيارة لأنه معوق، فلابد من أن يتيسر له السفر بالطائرة وتكاليف ذلك مع تكاليف العربة التي تحمله في الطواف والسعي ونحو ذلك. ولابد أن يتوفر له من ثمن الطعام ما يناسبه إذا كان ممنوعًا من بعض أنواع الأطعمة لضررها عليه، فإذا لم يتيسر له ما يلزم مما سبق ولم يتوفر لم يعتبر مستطيعًا، كما تدخل تكاليف استخراج أوراق السفر كالجواز ونحوه.

الحديث رقم (١٢٨٦)

١٢٨٦- وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، قَالَ: كَانَتْ عُكَاظُ، وَمَجِنَّةُ، وَذُو المَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَتَأَثَّمُوا أن يَتَّجِرُوا فِي المَوَاسِمِ، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾[البقرة: ١٩٨] فِي مَوَاسِمِ الحَجِّ. رواه البخاري[١].

ترجمة الراوي:

عبد الله بن عباس: تقدمت ترجمته في الحديث رقم (١١).

غريب الألفاظ:

عُكَاظ: نخل في واد بينه وبين الطائف ليلة، وبينه وبين مكة المكرمة ثلاث ليال، وبه كانت تقام سوق العرب في منتصف ذي القعدة حتى نهايته بموضع يقال له "الأُثيداء" شمال شرق الطائف (بلدة الحوّية اليوم) ٣٥ كم أسفل وادي شرب، وأسفل وادي عرج، يلتقيان هناك[٢].

مَجِنَّة: وهي من الجُنَّة وهو الستر والإخفاء، وَمجِنّة اسم سوق من أسواق مكة المكرمة في الجاهلية، وهي أسفل مكة المكرمة على قدر بريد منها، وكانت تقوم عشرة أيام من آخر ذي القعدة والعشرين منه وهي لبني الدُّئِل[٣].

ذو المجاز: سوق من أسواق مكة المكرمة في الجاهلية، وهي قرب عكاظ سوق بعرفة، على ناحية كبكب على فرسخ من عرفة، تعقد أول يوم من ذي الحجة إلى يوم التروية ثم يصيرون إلى منى، وشمال ذي المجاز سوق مجنة[٤].

فتأثموا: أي طرحوا الإثم، والمعنى: تركوا التجارة في الحج حذرًا من الإثم[٥].

---

(١) برقم (٤٥١٩).

(٢) أطلس الحديث النبوي، د. شوقي أبو خليل ١٨٨، ٢٧٤.

(٣) المرجع السابق ١٨٨، ٣٣٠.

(٤) المرجع السابق ١٨٨، ٣٣٠.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير في (أ ث م).

الشرح الأدبي

يدل هذا الحديث على التوازن الواقعي بين مصالح الدنيا، وأمور الدين فلا حرج من التجارة أثناء موسم الحج مادام المسلم على صلة قوية بالله تعالى – ويؤدى حقوقه وحقوق الآخرين، ويتقى الله فيما يكسب من مال، وينفقه في مرضاه الله تعالى، يقول ابن عباس: " فتأثموا أن يتجروا في المواسم – فنزلت " ليس عليكم جناح (أي حرج) أن تبتغوا فضلاً من ربكم " فالفعل الماضي: " تأثموا " يدل على حاله بالغة من المراقبة، واليقظة، والنظرة الأخروية في تعاطي المصالح الدنيوية، ولذلك نزلت الآية من الخبير بما في نفوسهم – جل في علاه ليصحح ذلك الخلط، وتلك المفاهيم، ويجعلهم في حاله محمودة من القوة الاقتصادية، والدينية، والاجتماعية، ويبين لهم أن الدين لا يعادى الدنيا، ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ في أسلوب النفي المزيل للحرج من نفوسهم الموسع عليهم في ابتغاء أرزاقهم.

فقه الحديث

يشير الحديث إلى عدة أحكام منها:

١ - أن مواضع المعاصي، وأفعال الجاهلية لا تمنع من فعل الطاعة فيها[(١)].

٢ - حكم بيع المعتكف: ذهب جمهور الفقهاء (الحنفية، والشافعية، والحنابلة) إلى أنه يجوز للمعتكف بيع وشراء ما يحتاج إليه واستدلوا على ذلك بعموم الأدلة من الكتاب والسنة الدالة على جواز البيع والشراء من غير فصل بين المسجد وغيره[(٢)]. كما استدلوا بالقياس على جواز التجارة في الحج، والجامع بينهما العبادة[(٣)].

وذهب المالكية، وعطاء، ومجاهد، والزهري إلى كراهة ذلك[(٤)]. واستدلوا على

---

(١) فتح الباري ٤/٣٩٣.

(٢) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني الحنفي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ٢/١١٧.

(٣) فتح الباري ٣/٧٢٦.

(٤) حاشية الصاوي والشرح الصغير ١/٧٣٢-٧٣٣، مواهب الجليل ٢/٤٦١، فتح الباري ٣/٧٢٦.

ذلك بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: ((جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانَكُمْ وَمَجَانِينَكُمْ، وَبَيْعَكُمْ وَشِرَاءَكُمْ، وَرَفْعَ أَصْوَاتِكُمْ، وَسَلَّ سُيُوفِكُمْ)).

ويناقش هذا: أن هذا الحديث محمول على اتخاذ المساجد متاجر كالسوق يباع فيها وتنتقل الأمتة إليها، أو يحمل على الندب والاستحباب توفيقًا بين الأدلة قدر الإمكان[1].

المضامين الدعوية

أولاً: من موضوعات الدعوة: يسر تعاليم الإسلام وبيانه: أن التجارة لا تنافي صحة الحج.

ثانيًا: من آداب الداعية: التيسير على المدعوين.

ثالثًا: من أهداف الدعوة: تحقيق المصالح الدنيوية والأخروية.

رابعًا: من موضوعات الدعوة: تحرز الصحابة رضي الله عنهم من الوقوع في أعمال الجاهلية.

أولاً - من موضوعات الدعوة: يسر تعاليم الإسلام وبيانه أن التجارة لا تنافي صحة الحج:

حيث جاء في الحديث: (كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية فتأثموا أن يتجروا في المواسم)، فنزلت: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2].

قال القرطبي: "ولما أمر تعالى بتنزيه الحج عن الرَّفَث والفُسوق والجدال رخّص في التجارة؛ والمعنى: لا جناح عليكم في أن تبتغوا فضل الله. وابتغاءُ الفضل وَرَدَ في القرآن بمعنى التجارة، ففي الآية دليل على جواز التجارة في الحج للحاج مع أداء العبادة، وأن القصد إلى ذلك لا يكون شركًا، ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه، أما إن الحج دون تجارة أفضل فلخلوه عن شوائب الدنيا وتعلق القلب بغيرها"[3].

وقال القاسمي: "قال الراغب: كانت العرب تتحاشى من التجارة في الحج، حتى إنهم كانوا يتجنبون المبايعة إذا دخل العشر، وحتى سمّوا من تولّى متجرًا في الحج:

---

(١) بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الكاساني الحنفي، تحقيق: الشيخ علي محمد معوض، والشيخ عادل أحمد عبدالموجود ١١٧/٢.

(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٨.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالمحسن التركي ٤١٣/٢ - ٤١٤.

الداج دون الحاج؛ فأباح الله ذلك، ففي الآية الترخيص لمن حجّ، في التجارة ونحوها من الأعمال التي يحصل بها شيء من الرزق - وهو المراد بالفضل هنا - فلا إثم عليكم في أن تبتغوا في مواسم الحج رزقًا ونفعًا وهو الربح في التجارة مع سفركم لتأدية ما افترضه عليكم من الحج"(١).

قال ابن حجر: "والتجارة أيام الموسم جائزة، ولقد خشي المسلمون من الوقوع في الإثم للاشتغال في أيام النسك بغير العبادة، ولما نزلت هذه الآية نفت الجناح والإثم عمن يفعل هذا"(٢). إن من مقتضيات الإيمان أن يتخلق المؤمن بالعبودية المطلقة لله تبارك وتعالى التي ليس فيها استثناء، ولا بقاء فيها لأي حظٍ من حظوظ النفس، أو تقديمٍ لأي علاقة من علائق الدنيا.

وهذه هي الغاية التي لأجلها خُلق الإنسان: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٣) ولأجلها بُعث الرسل -عليهم الصلاة والسلام-: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾(٤).

والعبودية المطلقة تعني أن يكون عند الإنسان الاستعداد في الاستسلام للتكليف مهما كانت التضحية، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾(٥).

وقد حصل الاستسلام فعلاً من بني إسرائيل، عندما أُمروا بالقتل توبةً من عبادة العجل: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾(٦).

---

(١) محاسن التأويل ٣/١٥٦.

(٢) فتح الباري ٣/٦٩٦.

(٣) سورة الذاريات، آية: ٥٦.

(٤) سورة الأنبياء، آية: ٢٥.

(٥) سورة النساء، الآيات: ٦٦-٦٨.

(٦) سورة البقرة، آية: ٥٤.

وكان هذا الابتلاء صعبًا يحمل معنى العقاب لأنهم أذنبوا ذلك الذنب العظيم.

وقد حدث مثل هذا الابتلاء لأبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام لإظهار عبوديته المطلقة في الاستسلام ولكن دون أي ذنب، عندما أمره الله بذبح ابنه فاستسلم الاثنان لأمر الله وبادرا إلى التنفيذ، فكان ذلك أصدق دليل على العبودية المطلقة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾[1].

هذا الاستعداد يجعل من اليسير على المؤمنين عدم التطلع إلى الدنيا وعزلها تمامًا أثناء العبادات، إلا ما أذن به الشرع، وما يتحول هذا الاستعداد إلى خُلقٍ دائم والتزام معتاد.

ومن هذا القبيل ما كان ينوي أن يمارسه المؤمنون من اجتناب التجارة في موسم الحج، لولا أن الله أذن بذلك، ونزلت الآية الكريمة في رفع الجناح، والمسلم الذي يسهل عليه أن يرى الطعام اللذيذ وهو جائع أو الماء الزلال وهو عطشان أثناء الصيام ولا يصعب عليه اجتناب ذلك، لن يصعب عليه اجتناب البيع والشراء أثناء الحج لو أن شرْع الله سبحانه منع من ذلك.

وقال ابن علان: "ومعنى فتأثموا: أي: تحرجوا خافوا من الحرج بسبب اتجارهم فيها فنزلت: (ليس عليكم جناح)، أي: حرج في (أن تبتغوا فضلاً من ربكم) أي: بالتجارة، ففي الحديث أن التجارة في الحج لا تنافي صحته وإن كان الكمال خُلُوّ يد الحاج منها؛ لأنها تشغل عن تمام التوجه إلى الله تعالى، والصحيح أنه يثاب على مقصده الديني وإن قلّ؛ أخذًا من عموم قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[2]، وهذا جارٍ في كل عمل أشرك فيه قصد ديني وقصد دنيوي"[3].

ثانيًا- من آداب الداعية: التيسير على المدعوين:

يتضح هذا من سياق الحديث، ولا شك أن من أهم آداب الداعية التيسير على المدعوين، لأن الشريعة الإسلامية كلها تيسير، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ

(١) سورة الصافات، آية: ١٠٦.

(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ - ٨.

(٣) دليل الفالحين ص ١٣٩٠.

حَرَجٍ﴾[١]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَه، فسَدِّدوا وقارِبوا، وأبْشِروا، واستَعِينوا بالغدْوَةِ والرَّوْحةِ وشيءٍ من الدُّلْجة))[٢]. وعن أنس رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((إِنِّي لأَدْخُلُ الصَّلاَةَ أُرِيدُ إِطَالَتَهَا، فَأَسْمَعُ بُكَاءَ الصَّبِيِّ، فَأُخَفِّفُ، مِنْ شِدَّةِ وَجْدِ أُمِّهِ بِهِ))[٣].

إن التيسير على المدعوين أمر هام في مسيرة الدعوة الإسلامية للوصول بالدعوة إلى قلوب الناس: "إنّ سماحة الداعية ولينه وسهولة معشره هي التي تفتح مغاليق القلوب، وتنفذ به إلى أعماق النفوس، يلامسها بالهداية فتقبل، ويدعوها إلى الخير فتستجيب، وهذا الخلق يجب أن يغطي مساحة حياة الداعية كلّها، وأن يكون ملازمًا له في كل شأن من شؤونه في دعوته، وفي حياته اليوميّة وفي حياته العامة.

ولقد كان من سماحة الإسلام أن جعل أحكامه وتشريعاته مبنية على التيسير ورفع المشقة والحرج عن الأمة، ولقد يسر الله سبحانه وتعالى الأخذ بتعاليم الإسلام فجعلها مقدورة من جهة، وتزال الكلفة عند حدوث المشقة من جهة ثانية، والدعوة الإسلامية بحاجة ماسّة إلى دعاة لديهم مع العلم الراسخ فقه ثاقب حتى لا يحجر على المدعو كثيرًا فيبتعد كثيرًا عن هذا الخير الذي يدعى إليه"[٤].

ثالثًا – من أهداف الدعوة: تحقيق المصالح الدنيوية والأخروية:

يتضح هذا من خلال جواز التجارة وهو أمر دنيوي في موسم الحج وهو أمر تعبدي أخروي وفي هذا مواءمة بين مصالح الدنيا ومصالح الآخرة، وهذا هدف رئيس من أهداف الدعوة وقد قال الله تعالى لقارون: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[٥]، "ومن عظمة التشريع

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٨.

(٢) اخرجه البخاري ٣٩.

(٣) اخرجه البخاري ٧٠٨، ومسلم ٤٧٠.

(٤) صفات الداعية، د. حمد بن ناصر العمار ص ٧٥ – ٧٦ بتصرف.

(٥) سورة القصص، آية: ٧٧.

الإسلامي أنه لا يباعد بين المادة والروح، ولا يفصل بين الدنيا والآخرة، بل ينظر إلى الحياة على أنها وحدة متكاملة بين حق الإنسان لربه، وحقه لنفسه، وحقه لغيره فالإسلام يقيم التوازن بين هذا وذاك"(١).

إن تحقيق المصالح الدنيوية والأخروية من ميزات شريعة الإسلام، وتأكيد الدعاة إلى الله على هذا المعنى يبرز عظمة الشريعة الإسلامية، ومقاصد الإسلام، وغايات الدعوة "ومن خصائص التوجيه الإسلامي أنه ملائم للفطرة والجبلة الإنسانية فهو يهتم بتربية جميع جوانب الإنسان: الخلقية، والجسمية، والعقلية، ويحقق التوازن بين مطالب الإنسان الجسدية والروحية فلا يطغى جانب على جانب آخر وحتى لا يكون الإنسان في صراع نفسي وعناء داخلي وكبت لغرائزه التي فطره الله عليها، فلحاجة الإنسان للمال أحل له التجارة وحثه على العمل والكسب الحلال، ولحاجة الإنسان إلى الطعام أحل له الطيبات من الرزق وحرم عليه الخبائث من الأطعمة والأشربة، وبهذا يتضح أن التوازن سمة من سمات التوجيه الإسلامي، التوازن بين مطالب الجسد ومطالب الروح والتوازن الخلقي بين حق الله وحق الأهل وحق الضيف وحق النفس"(٢).

رابعًا - من موضوعات الدعوة: تحرز الصحابة رضي الله عنهم من الوقوع في أعمال الجاهلية:

ويتضح هذا من سياق الحديث، حيث كان الصحابة رضي الله عنهم شديدي الحرص على التخلص من أمور الجاهلية، بعد أن هداهم الله إلى الإسلام؛ لأنهم أدركوا عِظَم خطورة ما كانوا فيه من الضلال؛ فلذلك كانوا يخشون من بقاء شيء من بقاياه، كمن يخشى وجود شيء من النار مهما قلّ أن يأتي على أثمن ممتلكاته بشرارة الحريق، فهو لذلك يتجنب كل ما يمُتُّ إلى النار بسببٍ أو صلة.

ونار الآخرة أعظم شرًا وأكبر خطرًا، وكل أمور الجاهلية تدعو إليها، وقد كانت كراهية الصحابة لأي أمرٍ من أمور الجاهلية مثل كراهيتهم للنار.

والقرآن الكريم يقرّر بعض المعالجات والأحكام، اعتمادًا على وجود تلك

(١) مستلزمات الدعوة في العصر الحاضر، على صالح المرشد ص ٤٦.

(٢) أصول التربية الإسلامية، د. خالد الحازمي ص ٤٩ - ٥٠.

الكراهية، التي جمعت بين الجاهلية والنار كما في مثل قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾[1]، وكما في مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ﴾[2].

وقد بلغ الحذر في الصحابة والحساسية من الأوضاع التي كانت سائدة في الجاهلية إلى حد التحرّج من بعض الأحوال والتصرفات التي قد لا يوجد محلّ للتحرّج منها، ومن ذلك تحرّجهم كما في هذا الحديث من أن يتجروا في موسم الحج فأنزل الله سبحانه ما يطمئنهم في قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[3]، ومن ذلك أيضًا ما رواه البخاري عن عاصم ابن سليمان قال: سألت أنسًا عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلمّا جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾[4].

وهذا التحرّج عند الصحابة رضي الله عنهم هو من شدة تديّنهم وتمسّكهم بعقيدة التوحيد.

إن الإسلام يحرص على تربية أتباعه على الورع، بحيث توجد لدى الشخص رقابة ذاتية داخلية تجعله يتحرى فيما يأخذ وما يدع، وما هو الذي ينبغي أن يمضي فيه وما هو الذي لا ينبغي، ويقدّم جانب الاحتياط في الأمور الملتبسة فيترك ما لا بأس به حذرًا مما به بأس، وذلك لأن السلامة لا يعدلها شيء.

ومعلوم أن الحياة مكرسّة أصلاً للابتلاء قال تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[5].

ولذلك فإن الأشواك مبثوثة في كل مكان، ولا يسلم منها إلا من كان شديد الحذر، ورحمة الله للإنسان في هذا الابتلاء ينالها من أخذ بالأسباب، ومن أبرز الأسباب

---

(١) سورة آل عمران، آية: ١٠٣.

(٢) سورة البقرة، آية: ٢٢١.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٩٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٥٨.

(٥) سورة الملك، آية: ٢.

أن يرحم الإنسان نفسه فيحجزها عن الاندفاع والرعونة، ولو حرمها بعض الشيء تورّعًا، رعايةً لها وعنايةً بها لكي يكون هذا سببًا لنزول رحمة الله عليه قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[1].

وهذه الأشواك التي يتربى المسلم على اتقائها والحذر منها تتمثل في كل ما هو ظاهر الضرر، وكذلك كل ما يتردّد فيه المسلم ويرتاب منه، ولا يطمئن إليه قلبه، وتشك فيه نفسه الحسّاسة اللوّامة الرقيبة الورعة، فيترك ما يريبه، ويكتفي بما لا يريبه، ويصير ذلك ميزانًا لديه، ومعيارًا يعتمد عليه، فيتقي كل الشبهات حتى يحفظ دينه من أي خلل قد يتسلّل إليه، ويصون عرضه من التساهلات والتنازلات التي قد يقضي فيها وطرًا، ولكنه يعقبها سياطٌ من لوم النفس ولوم الناس ونقدهم بحيث يصبح وقوعه في الريبة والشبهة ضررًا عاجلاً عليه، يجعله هو نفسه محل ريبة وشبهة عند الناس، كما جاء عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ))[2].

واتقاء الشبهات هو مظهر الورع، وصاحبه يكون محل قبول عند الله، ويضع سبحانه له القبول في الأرض فيكون بورعه داعية ولو كان لسانه صامتًا، وعندما يتكاثر الأتقياء الورعون ويشكّلون ظاهرة اجتماعية، فإن مجتمعهم يكون مثاليًّا ونموذجًا تتطلع إلى الاحتذاء به المجتمعات الأخرى فيجذبها ذلك إلى روضة الإسلام.

وهذا يفسر لنا سرّ تأثير أفراد أو أوزاعٍ[3] من تجمّعات صغيرة من المسلمين في أمم كبيرة، دخلت في الإسلام كما حصل في إندونيسيا، وكما يحصل اليوم في أوروبا وأمريكا عندما تدخل أعداد كبيرة في الإسلام بسبب الدعوة، وأبرز ما في هذه الدعوة دعوة السلوك.

إن الصحابة الكرام رضي الله عنهم وهم أول من نشروا الإسلام في الأرض كانوا يحملون

---

(١) سورة الأعراف، آية: ١٥٦.

(٢) أخرجه البخاري ٥٢، ومسلم ١٥٩٩.

(٣) أو زاعٍ: فرق، الوسيط في (و ز ع).

نفسية الوَرَع والتقوى، وتحرُّجهم من التجارة في موسم الحج رغم علمهم أن التجارة في أصلها حلال حتى جاءهم الإذن الصريح لدليل على عمران تلك القلوب العظيمة بالتقوى واكتفائها برضوان الله، وترفّعها عن حطام الدنيا، وهذا هو الذي جعلها تكسب الدنيا والآخرة، وحُبَّ الله وحب الناس، وجعل ذلك الجيل يتبوّأ مركز الصدارة لخير أمة أخرجت للناس.

المضامين التربوية في أحاديث الباب

أولاً - من وسائل التربية: الحج والعمرة:

هذا الباب يتضمن كثيرًا من الأحاديث التي تحث على أداء الحج والعمرة، وبيان فضلهما، وإذا كان لهما يقينًا مقصودٌ تعبدي كبير، فإنه يمكن أن يكون لهما كذلك دور تربوي مفيد في حياة الناس، وفي تربيتهم تربية سليمة صحيحة، وفي تغييرهم إلى الأحسن والأفضل والأكمل، ولعل هذا الدور التربوي يتضح فيما يلي:

أ - الحج والعمرة قائمان على الامتثال المطلق والإذعان المحض، فإن الحاج أو المعتمر يؤدي المناسك وقد لا يفهم الحكمة منها ولا المقصود من ورائها إلا أنه يطيع الله سبحانه وتعالى، إنه يطوف حول البيت ويسعى بين الصفا والمروة ويرمي الجمار ونحو ذلك وهو مطيع خاضع مذعن مستجيب لمولاه وحسبه وكفاه ذلك، وفي هذا فرصة ذهبية، لتعويد الناشئة على الاستجابة للشرع والخضوع له وامتثاله، حتى ولو لم يفهموا أو يدركوا الحكم من وراء ذلك، فحسبهم أنهم لله ممتثلون ولربهم خاضعون، إنهم عباد لله، يفعل بهم ما يشاء، فيأمرهم وينهاهم وهم لا يملكون إلا الانقياد.

ب - يجتمع في البيت الحرام والمشاعر والمناسك المسلمون من مختلف الجنسيات والألوان واللغات، ومن مختلف الأعمار: الطفل والصبي والشاب والشيخ والكبير، ومن مختلف أقطار الأرض من مشارقها ومغاربها وشمالها وجنوبها، كل هذا يدفع الحاج والمعتمر إلى الاعتزاز بدينه والاعتزاز بالانتساب إلى هذا الدين العظيم، هذا الدين الذي شمل مختلف نواحي الأرض، ومختلف الشعوب والأجناس، ووحد أهدافهم وأغراضهم وأعمالهم ومناسكهم وغاياتهم بحيث يشكلون وحدة رائعة تتغلب على كل ما يعيقها ويقف أمامها.

ج - في الحج والعمرة يشعر من يؤدي المناسك أنه مهما فعل فهو مقصر، فإذا كان قد ترك الأهل والبلدان فإنه غيره قد جاء من بلاد وأماكن أبعد مما جاء، وإذا كان أنفق من المال الشيء الكثير فإن هناك من أنفق أكثر منه، وإذا كان اجتهد في أداء المناسك وهو في صحته وقوته، فإن غيره قد أداها وهو يكاد لا يستطيع أن يمشي أو

يقيم صلبه ورغم ذلك أدّاها بكل حب وشوق وامتثال، وهكذا يشعر مؤدي المناسك بأن غيره فعل أكثر مما فعل، وفي هذا الشعور حماية له من الغرور والتكبر والتعالي على غيره ومن ثم يلزم التواضع والأدب مع نفسه ومع غيره.

د - في الحج والعمرة درس عملي لتعلم أخلاق التراحم والتسامح وسعة الصدر والرفق، حيث يكون التزاحم والازدحام في أداء المناسك،وهذا لا يناسبه إلا أن يكون مؤدي المناسك متصفاً بهذه الأخلاق حتى يستطيع أن يؤدي المناسك على خير وجه كما يساعد إخوانه على الوصول إلى ذلك.

وغير ذلك من الفوائد التربوية المهمة التي يحققها الحج والعمرة، لذا بيّن العلماء أن علامة الحج المبرور والعمرة المقبولة، أن يكون الإنسان بعدهما خيرًا من قبلهما وأفضل حالاً وأحسن سلوكًا.

ثانيًا - من فطنة المربي: معرفة ما يناسب من يقوم بتربيتهم:

لقد قال النبي ﷺ لأصحابه "أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجُّوا" فرغب رجلٌ في السؤال عن تكرار هذه الفرضية، فقال أكلَّ عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا، فقال رسول الله ﷺ: "لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم". فلم يجبه ﷺ على سؤاله وإنما أخبره أنه لو قال بالوجوب، كل عام لما استطاع المخاطبون وما أطاقوا وعجزوا عن الامتثال، وفي ذلك بيان لما يناسبهم ويتوافق معهم ولا يشق عليهم ولا يكلفهم من أنفسهم عنتًا ولا مشقة.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن زوجه عائشة رضي الله عنها لما سألت النبي ﷺ عن رغبتها في الجهاد والقتال لكونه أفضل الأعمال، لم يوافقها على هذه الرغبة ودلها على ما يناسبها ويناسب بنات جنسها ويتوافق مع قدراتهن واستعداداتهن، إنه الحج.

والخلاصة أن هذين الحديثين يمكن أن يستدل بهما على أن المربي يجب أن يكون فطنًا متيقظًا، ومن أمارات فطنته وتيقظه أنه يدل من يقوم بتربيتهم على ما يناسبهم ويلائمهم، ولا يوافقهم على كل أمر رغبوا فيه أو أحبوه أو رأوا أنهم قادرون على الالتزام به دون أن يدركوا حجم قدراتهم وإمكاناتهم.

إن المربي إن فعل ذلك قدّم خدمة جليلة لهم، فهو من ناحية دلهم على ما يتفوقون فيه ويبرزون وينجحون، وفي ذلك تأثير إيجابي عليهم نحو الإنجاز والإنتاج والإبداع، ومن ناحية أخرى فهو يوفر عليهم مرارة التجربة وصعوبة الطريق وعسر المسلك عندما يعملون ما لا يناسبهم ولا يكون في قدراتهم وسعتهم على المدى القصير أو الطويل.

إن على المستوى العام للتربية يجب أن يؤخذ ذلك في الحسبان والاعتبار، فما يناسب أحدهم لا يناسب الآخر، وما يوافقه ويناسبه لا يكون بالضرورة كذلك للآخرين، وهذا له تأثير مهم جدًا على مستوى ما يسمى الصراع بين الجنسين الرجال والنساء، فلو عرف كل جنس ما يناسبه وما يوافقه ما حدث الاختلاف والتنازع والشقاق والتصارع والاتهام والرمي بالسيطرة والديكتاتورية، فإن لكل جنس أعماله التي تناسبه ويبرز فيها ويتفوق ويحقق الإبداع والابتكار.

والمقصود أن على المربي أن يكون فطنًا فيدل من يقوم بتربيتهم على ما يناسبهم من أعمال حتى يريحهم ويساعدهم على الإنتاج والنجاح.

ثالثًا - التربية على إتيان المأمورات واجتناب المنهيات:

لقد قال النبي ﷺ "ذروني ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه".

لذا فإن "تلقي النصوص الشرعية، لتنفيذ ما فيها من أوامر، وتطبيق ما فيها من أحكام، من سمات التربية الجادة التي تفترض في أفراد الأمة الإسلامية، وهذه السمة تحتاج إلى رصيد من الإيمان القوي والتربية الزاكية، ولقد دلت النصوص الشرعية على أهمية هذه السمة في أكثر من آية وحديث، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[١] وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[٢].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٣٦.

(٢) سورة النساء، آية: ٦٥.

ولقد ابتلى الله صحابة رسوله ﷺ بآية في كتاب الله، وقفوا منها موقف المتلقي للتنفيذ المشفق على نفسه من القصور، مع شعور قوي بمسؤولية الأمانة تجاه أنفسهم في تلقي أحكام النصوص الشرعية، فظنوا أنهم عاجزون عن العمل بمقتضاها، فراجعوا رسول الله ﷺ فيها إشفاقًا على أنفسهم لا اعتراضًا، ومع ذلك سمعوا وأطاعوا، فنسخ الله حكمها وبقي لفظُها، وكم من سامع لها بعدهم ممن لا يحمل همّ التلقي للتنفيذ يمر عليها لا يحسب لها حسابًا، ولا يقف عندها بل يستوي الأمر عنده، أنسخت الآية، أم لم تنسخ؟!

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ((لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ : ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قَالَ فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ فَأَتَوْا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ. فَقَالُوا: أَيْ رَسُولَ اللَّهِ! كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ. الصَّلاَةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ. وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هذِهِ الآيَةُ. وَلاَ نُطِيقُهَا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ» قَالُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ. فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ. فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ﴾ (قَالَ: نَعَمْ) ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ﴾ (قَالَ: نَعَمْ) ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ (قَالَ: نَعَمْ) ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1] (قَالَ: نَعَمْ)))[2].

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ٢٨٤-٢٨٦.

(٢) أخرجه مسلم ١٢٥.

إن الغاية من الأحكام الشرعية التي جاءت بها نصوص الكتاب والسنة هي العمل بتنفيذ أوامرها واجتناب نواهيها، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾(١).

ومن أسمى الصور التي تتحقق فيها سمة التلقي للتنفيذ، تلك الصورة التي يتلقى فيها المؤمن الحث على أعمال مستحبة غير ملزم بفعلها، فيأخذها مأخذ العزيمة، ويلتزم بما فيها من أعمال من لحظة تلقيه للنصوص الشرعية فلا تردد أو تكاسل، أو انقطاع أو فتور، ومن تلك النماذج ما رواه سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب عن أبيه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: "نعم الرجل عبدالله لو كان يصلّي من الليل" قال سالم: فكان عبدالله بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً(٢) ... وقال البخاري: ما اغتبت أحدًا قط منذ علمت أن الغيبة حرام، إني لأرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحدًا(٣).

رابعًا - التربية على أن الأعمال بحقيقة أدائها لا بشكلها وهيئاتها فحسب:

لقد ذكر النبي ﷺ أن الحجّ المبرور من أفضل الأعمال، قال النووي: (المبرور هو الذي لا يرتكب صاحبه فيه معصية)(٤)، وأخبر ﷺ أن "من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه"، أي أنه أدى الحج أداء منعه من ارتكاب المعاصي والذنوب كما أخبر ﷺ "أن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة"، أي أننا أمام أحاديث تحث وترغب على أداء الحج كما ينبغي، وكما يكون، لا يكتفي فيها بالشكل والصورة فحسب، إنما يكون حجًا يحج معه القلب وتطوف وتسعى الجوارح وترمي الأفئدة ما علق بها من حب الدنيا والشهوات والأهواء، إنه يكون حجًا مبرورًا خاليًا من الإثم والذنب، إنه حجٌ قصد مؤديه أن يختلف حاله بعده عما سبقه، فيقبل على أداء مناسكه

---

(١) سورة الحشر، آية: ٧.

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري ١١٢٢، ومسلم ٢٤٧٩.

(٣) التلقي للتنفيذ سمة إيمانية، سلمان بن عمر السنيدي، مقال بمجلة البيان، العدد ١٢٣، ص ٤٠-٤٥.

(٤) رياض الصالحين ٤٥٣.

وشعائره بقلبه وروحه، يناجي ربه ويدعوه مخلصًا أن يتقبله منه، وأن يكون خالصًا لوجهه، إنه يعيش كل شعيرة وكل منسك بقلبه وجوارحه، فيلهج لسانه بذكر ربه ويخضع قلبه ويسكن ويذلّ له سبحانه، إنه إذا أحرم وقد تجرد من ملابس الدنيا، فإنه كذلك يتجرد من أطماع الدنيا وشهواتها وملذاتها، ويتعلق قلبه بالله الواحد القهار ويطمع في رضاه وعفوه وكرمه ودخوله جنته، إنه يرى نفسه عبدًا لله حقًا، فيفعل ما يأمره به وينتهي عما نهاه، فإنه بلبسه الإحرام قد منع من فعل أشياء، وهو بهذا مسلم مطيع منقاد، وفي الوقت نفسه يعلن استجابته لله عز وجل فيقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك، ثم هو يطوف حول البيت، بيت الله الحرام سبعة أشواط، فيعظم ما عظمه الله ويجلّ ما أجله الله، فلا ينتهي من الطواف إلا وقد استقر في قلبه تعظيم شعائر الله. ثم يذهب إلى الصفا والمروة يسعى بينهما داعيًا ربه، مقبلاً على ذكره، متضرعًا بقلبه إليه أن يتقبله، فها هو ذا يمشي في مكان المشي، ويسرع في مكان الإسراع، ويصعد ويهبط استجابة لله رب العالمين، فلا يكاد يفرغ من السعي إلا واستقرّ حب طاعة الله في قلبه وبين جوانحه، ثم في عرفة يقبل على الدعاء والذكر ويشتد في ذلك، ولا يدعو بلسانه فحسب بل يدعو أيضًا بقلبه وجوارحه وفؤاده، كل ذلك رجاء أن يعتقه الله من النار.

ثم هو إذا رمى الجمرات رمى معها شهواته وملذاته ودنياه، وأقبل على آخرته وعمله الصالح، كل ذلك ابتغاء رضا الله ونيل رحمته، فإن هو فعل ذلك كان حجه مبرورًا وسعيه مشكورًا، وقد تغير قلبه فأصبح أكثر إيمانًا وتبدلت جوارحه فأصبحت أكثر توجهًا لله رب العالمين، وانضبط جسده فلا يتحرك إلا لله، ولا يقف إلا عند حدود الله تعالى.

أما من حج والتزم الشكل والهيئة فحسب، دون أن يحاول أن يحقق معاني الحج من الابتهال والتضرع والخضوع والخشوع والانقياد، فإنه نادرًا ما يستفيد من حجه هذا، ويكون تعبه ومشقته أكثر من استفادته من هذا المنسك العظيم.

وشتان بين حاج حج حجًا مبرورًا، وحاج لم يكن له من حجه إلا الشكل والهيئة،

فهذا رجع إلى أهله مسرورًا، وذاك رجع كما ذهب، وهذا أقبل بتغيير هائل في نفسه وذاك ظلّت نفسه خامدة منطفئة، وهذا أحس المحيطون به بأنه قد حج كما ينبغي، وذاك ما أحس الناس بحجه ولا بتغيره، وهكذا.

وعلى ذلك كان هناك فارق كبير بين حج وحج، بين حج يحج فيه القلب والجوارح وحج حج الظاهرُ دون الباطن، وعلى ذلك ينبغي أن تكون التربية منصبة على أداء الأعمال بحقيقتها ومقصودها ولبها لا الاكتفاء بالشكل والهيئة فحسب.

خامسًا - التربية على اختلاف مراتب الأعمال باختلاف الأزمان والأماكن:

لقد أخبر النبي ﷺ عن فضل يوم عرفة فقال: "ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة"، فعرفة زمان ومكان، فضله الله تعالى على كثير من الأماكن وعديد من الأوقات، كما أخبر النبي ﷺ عن فضل العمرة في رمضان فقال: "عمرة في رمضان تعدل حجة، أو حجة معي" فدل ذلك على أن العمرة في رمضان لها من الفضل ما ليس للعمرة في سواه، وما هذا إلا لفضل الوقت وشرفه، وعلى ذلك يمكن الاستدلال بهذين الحديثين في مجال التربية على أنه ينبغي أن يربى الناشئة على أن مراتب الأعمال تختلف باختلاف الأزمان والأماكن، وفي ذلك عدة فوائد تربوية، منها:

أ - غرس عادة إتيان الأعمال الفاضلة ذات المردود الأعلى والنتيجة الأسمى، والحرص على ذلك وعدم تفويتها ما أمكن إلى ذلك من سبيل.

ب - غرس عادة التمييز بين مراتب الأعمال والأفعال، والتمييز بين فضائل الأوقات من غيرها، ومعرفة ما يناسبها من أعمال.

ج - تعويد الناشئة وغيرهم على الجمع بين الأعمال الصالحة في الأوقات الفاضلة ما دام ذلك مشروعًا وفي الطاقة وفي الوسع وإلا قدم الأفضل والأحسن والأعلى في العمل والوقت.

سادسًا - الاهتمام بكبار السن والمقعدين:

لقد جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ تسأله عن الحج عن أبيها الذي أدركته

فريضة الحج وهو شيخ كبير لا يستطيع أن يؤدي مناسك الحج، كما ذهب لقيط بن عامر رضي الله عنه إليه ﷺ فقال: إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن، وكلا السائلين يسألان عن الحج عن الأب، فأجاز لهما النبي ﷺ أن يحج كل واحد منهما عن أبيه، وهنا قد تحضر بعض الأسئلة: أليس هذا اهتمامًا من الأبناء بآبائهم الكبار المقعدين الطاعنين في السن؟ أليس هذا إقرارًا من النبي ﷺ على هذا الاهتمام وتشجيعًا له؟ أليس الحج عن هؤلاء الكبار الطاعنين إدخالاً للسرور عليهم والسعادة على قلوبهم أن مكن الله لمن يحج عنهم ويمن الله عليهم بفضل هذا الحج وثوابه؟ أليس في هذا كله اهتمام كبير بهؤلاء الذين بلغوا من العمر عتيًا ومن العمر أرذله؟ أليس هذه التفاتة رائعة يوليها الإسلام لهؤلاء الذين أفنوا أعمارهم في تحقيق مصالح الدين ومصالح الدنيا المشروعة؟ أليس في هذا رد لبعض الجميل لهؤلاء الذين طالما قدموا الكثير من المعروف والخير لأبنائهم وذرياتهم؟ أليس في هذا خير هدية وأثمن منحة لهم وهم يوشكون أن يودعوا الدنيا وينتقلوا إلى جوار الرحمن؟

إننا يمكن أن نستدل بهذين الحديثين على أن ينبغي أن نربي الناشئة وغيرهم على الاهتمام بكبار السن والمقعدين، وإعطائهم ما يستحقون من تقدير ومكانة ومنزلة واحترام، ولا نفعل كما تفعل بعض المناهج التربوية الأخرى التي ترى فيهم عبئًا على الدولة وعلى مصادرها ومواردها، فهم في رأيها أصبحوا قوة معطلة تعاني من الأمراض الخطيرة والعلل المقعدة والتي تجعلهم فئة مستهلكة بعد أن كانت منتجة، ومن ثم تضيق بهم ذرعًا حتى إنها قد تفكر في التخلص منهم بأشكال غير آدمية بالمرة، فأين ذلك من اهتمام الإسلام بهم، واعتبارهم أنهم أولى الناس بالإكرام والعناية والتقدير والاهتمام، حتى إنه لا يكتفي بأن يطالب أتباعه أن يوفروا لهم متطلبات الحياة الضرورية فحسب، بل يسعوا إلى أن يستكملوا ما قد يكون فاتهم من فرائض وعبادات وذلك على نحو مشروع مقبول.

والخلاصة أنه ينبغي أن يكون من اهتمام المربي أن يربي من يقوم بتربيتهم على الاهتمام بالكبار، والعناية بشؤونهم، والعمل على احترامهم، كما يربيهم على العطف

على الصغار والحدب عليهم، فإن التربية الإسلامية تربية متراحمة متوادة.

سابعًا - تعويد الصغار على أداء العبادات:

لقد قال الصحابي السائب بن يزيد رضي الله عنه: حُجَّ بي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع، وأنا ابن سبع سنين، كما أن امرأة مسلمة رفعت صبيًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: ألهذا حج؟ قال: نعم، ولك أجر، فكان في هذين الحديثين إرشاد للمربين أن يعوّدوا الناشئة وغيرهم على أداء العبادات والطاعات وهم في سن الصغر، ولا يمنعوهم من ذلك بُحجّةِ كونهم صغارًا لا يتحملون ذلك ولا يطيقونه، وأنهم سوف يؤدونها وهم في سن البلوغ، إن تأخير تعويد الصغار عن أداء العبادات يعود على درجة امتثالهم للطاعات والعبادات وقت البلوغ والتكليف، فتجد أنه ليس عندهم من اليقظة والإقبال والاهتمام ما عند من عُوِّدوا عليها وهم ما زالوا صغارًا، إن الأم التي تمنع طفلها من أن يصوم بحجة أن جسمه ضعيف، وأن الصيام سيؤثر عليه وعلى جسده، وتبالغ في ذلك، مع أن أقرانه ومن هم في سنّه يصومون ولا تظهر عليهم أمارات التأثر التي تخشاها على ولدها ولا علامات الإرهاق والضعف التي ترهبها على ابنها، إنها تبالغ في ذلك أشد المبالغة وذلك بدافع الحب والشفقة، إلا أنها من ناحية أخرى تحرم ولدها من يكون له دور إيجابي في أداء العبادات وهو صغير وتحرمه من أن يحس بلذة التعبد ولذة أن يكون مثل قرنائه وأمثاله ونظرائه، إنها تجعله يشعر -دون أن يدري- أنه مختلف عنهم، وأن قدراته أقل من قدراتهم، وعزيمته أضعف من عزيمتهم، وخبرته أقل من خبراتهم، وهذا ينطبع في نفسه ويتعمق ويظلّ يحركه بعد ذلك في مستقبل أيامه.

إننا نريد من الآباء أن يعودوا أولادهم على العبادة بقدر الاستطاعة وبقدر الإمكان، حتى يسهل عليهم أداؤها عند سن التكليف، فكم من مسلم يعرف أن الصوم حق وواجب لكنه يعاني ويقاسي في صومه كل عام، بل إنه - والعياذ بالله - لا يستطيع الاستمرار في الصوم فيفطر، وما ذلك إلا لأنه لم يعود الصيام في صغره. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن أداء العبادات في وقت الصغر يكوّن حبًا واعتزازًا في نفوس الناشئة عندما يكبرون ويكلفون، فكم من الذكريات الجميلة نحملها لوقت طفولتنا

ونحن نذهب إلى المساجد وقت الصلوات ونذهب للقيام في رمضان، وإيقاظ الجيران وقت السحور، وكذلك ونحن نذهب ببعض الصدقات للمحتاجين والمساكين، ويود كل واحد منا أن ينقل هذه الذكريات الجميلة إلى أبنائه وذريته.

ولذا كان على المربين أن يربوا صغارهم على أداء ما يستطيعون من عبادات وأعمال صالحة.

ثامنًا - التربية على الجمع بين العمل للآخرة والعمل للدنيا:

لقد أنزل الله تعالى قوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1] بسبب ما شعر به الحجاج من حرج وتأثم من متاجرة والقيام بالبيع والشراء وقت الحج ومكانه، وذلك لأن الحج لله تعالى، فشعروا أنهم إذا تاجروا خدشوا نيتهم الخالصة لله تعالى بما يأتيهم من نفع دنيوي، إنهم اعتقدوا أن الحج لا يكون فيه إلا أعمال الحج وأداء المناسك أما التجارة والانشغال بالكسب المادي معه ففيه إقحام للدنيا فيما هو خالص للآخرة. فنزلت هذه الآية الكريمة تنفي عنهم هذا الحرج وهذا التأثم وتبين لهم أنه لا حرج أن يتاجروا في موسم الحج، بشرط ألا يطغى هذا على المقصود الأول وهو أداء النسك والشعائر كما ينبغي وكما يراد. والسؤال هنا: أليس في نفي الحرج هذا جمع بين العمل الأخروي والعمل الدنيوي؟ وأنه متى استطاع المكلف أن يجمع بينهما على وجه مشروع ومقبول انتفى التعارض والتزاحم بينهما؟ وأنه انطلاقًا من هذا أليس هذا دليلاً واضحًا لحث الشرع المكلفين على العمل للدنيا كما يعملون للآخرة ويجدون ويجتهدون؟ أليس الدنيا مزرعة الآخرة؟ أليس صلاحها طريقًا لصلاح الآخرة؟ أليس امتلاكها سبيلاً من سبل عبادة الله على الوجه الذي يرضيه عنا؟

والخلاصة أنه يمكن الاستئناس بهذا الحديث لدفع المربين لأن يربوا أتباعهم على أن يعملوا للدنيا كما يعملون للآخرة، وأن يجمعوا بين العملين ما دام هناك طريق للجمع بينهما، ويغرسوا ذلك في نفوسهم غرسًا واضحًا لا لبس فيه، وعندها يحققون فوائد تربوية مهمة جدًا منها:

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٩٨.

أ - تعويد الناشئة على أن يكون لهم مردود قوي وإيجابي في هذه الحياة الدنيا ولا يكتفون بدور المتفرج أو المشاهد، ويتركون غيرهم يحقق السبق والتقدم ويتملك من الوسائل ما يجعله يتحكم في غيره ويفرض ثقافته عليه طوعًا أو كرهًا. إن على المسلم أن يكون على الأقل قائمًا بدور الند والمنافس لا دور المتلقي والمستهلك لما ينتجه غيره أو يفرضه غيره، وهذا لا يكون إلا بالعمل من أجل التمكين في هذه الدنيا والسيطرة على ما يساعد على تحقيق هذه الغاية النبيلة.

ب - العمل للدنيا يساعد على نشر دين الإسلام وإشاعة تعاليمه بين الأمم والشعوب المختلفة ويمحو تلك الصورة القائمة التي تكونت في الذهن الغربي عن المسلم بأنه تارك لدنياه لا يلتفت إليها ولا يلقى لها بالاً، وإنما كل همه التمتع بملذات الدنيا من طعام ونحو ذلك، ولو أحسنوا التصور وأحسن المسلمون العمل لتغيرت الصورة نهائيًا وأصبح ينظر إلى المسلم في عالم اليوم نظرة تقدير واحترام.

ج - إذا كان العالم الغربي الآن لا يعرف إلا الحضارة المادية المغرقة في أوحال المادية التي لا تقيم للروح ولا للوجدان ميزانًا لا تفسح لهما مكانًا في حضارتها المادية، فإن المسلمين إذا عملوا للدنيا كما يعملون للآخرة، يقدمون حلاً مدهشًا طالما حار المفكرون الغربيون في البحث عنه، ومحاولة تلمس مواصفاته وتلمس طرق تحقيقه، إن المسلمين إن فعلوا ذلك قدموا صورة تحتاجها البشرية أمسّ الاحتياج لتنقذها من هذا التيه، الذي دخلت فيه بسبب العمل الدنيوي البحت.

د - إن الجمع بين العمل الأخروي والعمل الدنيوي يهذب العمل الدنيوي ولا يخرج به عن نطاقه المأمول في إسعاد البشر دون التسبب في شقائهم كما هو حادث الآن، إنه يوظف العمل الدنيوي في خدمة البشرية وإسعادها وتحقيق ما تطمح إليه من تقدم وازدهار، ويحفظه من أن ينحرف عن هدفه النبيل وغرضه الشريف إلى أن يكون وسيلة لتدميرها والعمل على إفنائها.

والخلاصة أن التربية على الجمع بين العمل الأخروي والعمل الدنيوي من المبادئ المهمة جدًا التي يجب أن يتربى عليها النشء حتى يحقق لنفسه السعادة في الدارين.

۞ ۞ ۞